J A D A L
رواية
الأرض التي تموت
رينيه بازان
ترجمة
بهاء إيعالي
جدل
منشورات جدل
JADAL PUBLISHING
سادر الكتب

مقدمة المترجم

في روايته «الأرض التي تموت»، يقدّم لنا رينيه بازان حكاية عن فرنسا العميقة، عن تلك الأرض التي عرفتها بلاد الكروم والحقول الشاسعة يوماً وباتت في طي النسيان في هذا الزمن. وبالتالي فهي استحضارٌ رائعٌ لحياة الفلاحين الذين عاشوا في اندماجٍ ذاتيّ تامّ مع الطبيعة، وتطرّق إلى الصعوبات الحياتيّة التي واجهوها، لكنها أيضاً تسلّط الضوء على جاذبيّة المدن إثر تحوّلات ما عرف آنذاك باسم الثورة الصناعيّة، أي التحوّلات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة التي ألقت بظلالها على المجتمع الريفي الفرنسي أواخر القرن التاسع عشر.

لعلّ أبرز ما بقي حضوره متوهّجاً في الرواية هو احتفاء بازان بالفلاحين الفرنسيين في ذلك العصر، وما يقابله من الظروف التي تتغيّر توالياً عليهم، فبازان لم يقدّم أيّ تصوّراتٍ حول نهاية الحياة الريفيّة الفرنسيّة مع تمدّد رقعة الثورة الصناعيّة في أوروبا، كما أنّه لم يتوانى عن نسب سبب نهاية هذه الحياة إلى الأرض نفسها، لكنّه بدا وكأنّه راضٍ عن مراقبته ومشاهدته لتغيّراتها الشكليّة ليس أكثر، ومن هنا جاء النص متعلّقاً باليأس من العيش داخل تلك البيئة الفلاحية والتمسّك بها، وبالتالي لم نجد لديه أيّ شيءٍ يذهب نحو إعادة النظر للعلاقة مع الأرض، أكان ذلك بشكلٍ صريحٍ أو مضمر.

وهكذا فإنّ رواية «الأرض التي تموت» بمثابة وثيقة نعي لتلك الحياة البائدة، وتتّخذ من طابع الملاحظة الدقيقة لهذا التغيير الحتمي لذلك العصر ثيمة لها، فلا تحملُ في طيّاتها رسالة محدّدة من الكاتب يتبنّى فيها موقفاً واضحاً، أكان دعوة للتمسّك بالأرض نظراً لقيمتها الاستراتيجيّة في استمرار الحياة البشريّة أو حتى التخلّي عنها في ظلّ صعوبة الحياة تحت ظلالها وسعي كافة الريفيين للتطلّع لحياةٍ أفضل، بل كلّ ما أرادت تقديمه هو تصوير هذا العالم، بلغةٍ شاعريّةٍ جميلة، حاملةً بداخلها حزنها الطويل عليه، على تلك الحياة أمست حكايةً ميّتة، ميّتة كأرض «توسان لومينو».

بهاء إيعالي

I

لا فرومنتييير

- هلا صمتّ باروج؟! إذاً أنت لا تتعرف على الناس هنا!

توقّف الكلب الهجين من عشرين سلالةٍ مختلطة، بشعره الرماديّ الناعم الذي ينتهي بوبرٍ أسمر عند أطراف الأقدام، عن النباح عند السياج، مهرولاً على طول حافّة العشب المحيط بالحقل، وراضياً عمّا أنجزه من واجبٍ. جلس عند نهاية صفّ الملفوف حيث عمل المرابع(1) على قطفه. وعلى نفس المسار اقترب رجلٌ رأسه يتطاير في الريح، ماشياً ومرتدياً ثوباً مخمليّاً قديماً مضلّعاً وداكنا، وفيه السلوك المساوي والمباشر للمشاة المحترفين. فيما تحدّثت ملامحه المرسومة الشاحبة في طوق اللحية السوداء، وكذلك عيناه اللتان تدوران حول السياج بشكلٍ روتينيّ وبالكاد ترتاحان، تعبران عن التعب وعدم الثقة والسلطة المتنازع عليها لمندوب السيّد. إنّه مدبّر ووكيل أعمال الماركيز دو لا فرومنتييير. توقّف خلف باروج الذي غمز بجفنيه خفيةً ولم تتحرّك أذناه.

- هاي! طاب نهارك يا لومينو!

- طاب نهارك!

- عليّ أن أتحدّث إليك: لقد كتب السيّد الماركيز.

لا شكّ أنّه كان يأمل مجيء المرابع إليه، وذلك ما لم يحدث.

أمّا الفلاح الماريشي، الملوي إلى نصفه والممسك بحفنةٍ من الأوراق الخضراء، فنظر جانباً إلى المدبّر الساكن على بعد ثلاثين خطوة في العشب المحيط بالحقل. ما المطلوب منه؟ ارتسمت ابتسامة على خدّيه الممتلئين، وامتدّت عيناه الصافيتان في قلب محجريه.

ولتأكيد استقلاليته عاد إلى العمل لبرهةٍ من دون إجابة، فقد شعر بنفسه على الأرض التي يعتبرها ملكًا له، والتي تزرعها سلالته بموجب عقدٍ تمّ تجديده إلى أجلٍ غير مسمى. من حوله شكّلت ملفوفاته الثقيلة والجميلة مربّعاً ضخماً، متلوّنةً بكلّ تدرّجات اللون الأخضر والأزرق والبنفسجي، ولمعان تزايد بفعل غروب الشمس. وعلى الرغم من طوله الفارع، إلّا أنّ المرابع غارقٌ حتى خصره في هذا البحر الصغير والنابض بالحياة كسفينة، وفي القسم العلوي من جسده تظهر فقط سترته القصيرة وقبّعته اللباد المستديرة التي يتدلّى منها شريطان من المخمل على غرار موضة البلد. وعندما وُسِم بوقتٍ من الصمت والكدح، بتعالي مدير مزرعةٍ على عاملٍ مستأجر، اعتدل في وقفته وقال:

- يمكنك التحدث، فهنا ما من أحدٍ سواي أنا وكلبي.

أجاب الرجلُ بشكلٍ مزاجي:

- السيّد الماركيز غير سعيدٍ لأنّك لم تدفع في عيد القدّيس يوحنّا، فقد تأخّرت قرابة الثلاثة أشهر!

- ولكن هل يعلم أنّني فقدتُ ثورين هذا العام، وأنّ الحنطة

لا تساوي قرشاً واحداً، وأنه علينا، أنا وأبنائي والمخلوقات، أن نعيش؟

وبعبارة «المخلوقات»، وكما يفعل الماريشيون عموماً، كان يقصد ابنتيه إليونور وماري روز.

- كفى! كفى! تابع المدبّر. السيّد الماركيز لا يطلب منك تفسيراتٍ أيّها الرجل الطيّب: إنّه المال.

هزّ المرابع كتفيه قائلاً:

- لن يطلب أبداً، هذا إن كان في لا فرومنتيير. أودّ جعله يستمع إليّ بعقلانيّة، يمكنني القول له إنّنا كنّا أصدقاء، ووالده كان صديقاً لوالدي. أودّ أن أريه التغيير الذي حدث لي منذ ذلك الحين، وهو سيتفهّم الأمر، لكن إليك الأمر: كلّ من يجري التعامل معهم الآن ليسوا من السادة، لا أحد رآه أبداً، والبعض يقول لن يراه أحدٌ مرّةً أخرى. الضرر كبيرٌ بالنسبة لنا.

- ربّما، لكنّني لست مضطرّاً لمناقشة الأوامر. قال الرجل الآخر. متى ستدفع؟

- متى ستدفع؟ سؤالٌ يُسأل بسرعة، لكنّ العثور على المال أمرٌ آخر.

- إذاً تريدني أن أجيبه بلا؟

- بل ستجيبه بنعم لأنّه ضروري، سأدفع في عيد القدّيس ميخائيل، فهو ليس ببعيد.

وكان المرابع على وشك الانحناء لاستئناف عمله عندما

أضاف الحارس:

- ستبلي بلاءً حسناً بالانتباه إلى خادمك يا لومينو. ففي ذلك اليوم، داخل كايّتري، التقطتْ أفخاخاً يمكن أن تكون له فقط.

- هل كتب اسمه عليها؟

- لا، لكنه معروفٌ أنّه أكثر صيّادٍ مسعورٍ في البلاد. احذرْ! كتب لي الماركيز قائلاً إنّ العائلة ستطرد بأكملها إذا أمسكتْ بكم مزّةً أخرى، أحدكم أو غيركم، وأنتم تصطادون.

ألقى الفلاح أرضاً حبّة ملفوفٍ وشدّ قبضتيه قائلاً:

- كذّاب، لم يقل شيئاً من هذا! أعرفه أكثر منك ويعرفني، ولن يعطي تفويضاتٍ مثل هذه لأشخاصٍ مثلك! سيعيدني السيّد الماركيز إليه، أنا لومينو العجوز! إذاً ارحل!

- لقد كتب ذلك صدقاً.

- كذّاب! كرّر الفلاح.

- ما الذي تريده؟ سنرى. قال الوكيل وقد استدار لمواصلة طريقه. لقد جرى تحذيرك، هذا المسمّى جان نيسمي سيلعب عليك حيلةً سيّئة، ناهيك عن أنّه يتودّد لابنتك كثيراً، كما أنّه رجلٌ مفلسٌ من بوكاج، وقد جرى الحديث عن ذلك كما تعلم!

احمرّ وجه الفلّاح وامتدّ صدره إلى الأمام، ودفع قبّعته إلى رأسه بقبضته وخطى ثلاث خطواتٍ كأنّه يركض نحو الرجل الذي أهانه، لكنّ الأخير، المتكئ على عصاه، استأنف

مشيته بالفعل وهيئته المنزعجة تتحرّك بعيداً على طول السياج. انتابه خوفٌ لا ريب فيه من هذا العجوز الكبير الذي ما زالت قوّته هائلة. وفي الغالب باغته شعورٌ بفشل تهديداته وذكرى أنّه جرى التبرؤ منه عدّة مرّاتٍ من قبل الماركيز دو لا فرومنتييز، السيّد العام الذي لم يستطع تبرير تساهله تجاه عائلة لومينو.

عندئذٍ توقّف الفلاح، وتابع بعينيه الخيال المتقلّص للمدبّر. رآه يعبر سلّم السياج على الجهة المقابلة للسور، ويقفز في الطريق ويختفي على يسار المزرعة في الممرّات الخضراء المؤدية إلى القصر.

وعندما غاب عن ناظريه قال بصوتٍ عالٍ:

- لا! لم يقل الماركيز ذلك! لم يقل أنّه سيطردنا!

في تلك اللحظة نسي العبارات المشينة التي تقوّلها الرجل على ماري روز، الابنة الصغرى، ليفكّر فقط في التهديد بالفصل الذي أزعجه تماماً. ببطء أدار عينيه حوله، والتي أصبحت أكثر صلابةً من المعتاد، كما لو كان يدعو ليشهد الأشياء المألوفة التي كذب بها المدبّر، ثم انحنى للعمل.

وكانت الشمس مائلة للغاية بالفعل، وعلى وشك الوصول إلى خطّ أذن البحر الذي يحدّ لا فرومنتييز من جهة الغرب، فيما السيقان المشذبة، المثنية بفعل رياح البحر، منتهيةً بخصلةٍ من الأوراق في التاج، مما جعلها تبدو وكأنها ملكة كبيرة. كان ذلك في بداية شهر سبتمبر، وفي تلك الساعة من

المساء، عندما اجتاحت الهبات الساخنة البرد الليلي الذي نزل، كان المرابع يعمل بسرعةٍ ودون توقّف وكأنّه ما زال شابّاً. مدّ يده فتكسّرت الأوراق على طول جذع الملفوف مصدرةً صوت انكسار الزجاج، وتكومت تحت القنطرة المظلمة التي غطت الأثلام. انغمس في ذلك الظل الذي تنبعث منه رائحة الأرض الرطبة الضائعة وسط تلك النخلات الكبيرة الناعمة والمترهّلة بكاملها جرّاء الحرارة والمدعومة بأضلاعٍ مخطّطة بالأرجواني. في الحقيقة بدا جزءً من ذلك الغطاء النباتي، وكان من الضروريّ الإمعان في النظر لتمييز الجزء الخلفي من سترته في هذا التبقّع الأخضر والأزرق في حقله حتى يكاد يختفي. ومع ذلك، فبقدر ما كان قريبًا جدًا من الأرض بجسده المنحني، امتلك روحاً نشطةً ومتأملة، وأثناء العمل استمر في التفكير في أشياء الحياة، وأمسى الانزعاج الذي شعر به من تهديدات الحارس يخف. كلّ ما عليه فقط هو أن يتذكر حتى لا يخاف من أي شيء بادرٍ من الماركيز دو لا فرومنتيير. أليس كلاهما من النبلاء، ألم يعرف كلاهما ذلك؟ لأنّ المرابع ينحدر من لومينو الكبير الذي عاصر الحرب العظمى. وعلى الرغم من أنه لم يتحدث أبدًا عن هذه المغامرات القديمة، وبسبب الأوقات التي تغيرت، لم يكن النبلاء ولا الفلاحون يجهلون أن الجد العملاق الملقب «برين دامور» قد قاد جنرالات الانتفاضة بمركبته الشراعية عبر مستنقعات فونديه، وهؤلاء وجهوا ضرباتٍ رائعةٍ وعثروا على سيف الشرف، الذي أكله الصدأ، خلف خزانة المزرعة. وتعدّ عائلته من أكثر العائلات ترشّخاً في البلاد، فهي مرتبطة

بثلاثين مزرعة على الأراضي الممتدة من سان جيل إلى جزيرة بوان، وهي المنطقة التي تشكّل أهوار بريتانيا. لم يستطع لا هو ولا أي شخص أن يقول في أي وقت بدأ آباؤه بزراعة حقول لا فرومنتيير. ولعدّة قرونٍ ظلّ الجميع على كلمته، الماركيز من جهة ولومينو من جهةٍ أخرى، مرتبطان بالعادة، يفهمان الريف ويحبّانه بالطريقة ذاتها، ويشربان نبيذ الأرض معاً عندما يلتقيان، دون أن يعرف لا الأوّل ولا الآخر، بفكرة أنّه من الممكن مغادرة المنزلين المجاورين، أي القصر والمزرعة اللذان يحملان الاسم نفسه. وبالتأكيد كانت الصدمة كبيرة عندما قال السيّد هنري آخر الماركيزات، وهو رجلٌ أربعيني أكثر شغفاً بالصيد وبالشرب وريفيّ أكثر من أسلافه، لتوسان لومينو قبل ثماني سنوات صبيحة أحد أيّام الميلاد، فيما كان البرد يتساقط: «عزيزي توسّان، سأذهب للعيش في باريس، فزوجتي لا يمكنها الاعتياد على الحياة هنا، فالمكانُ محزنٌ بالنسبة لها وباردٌ جداً، لكن لا تقلق، سأعود، لذا اطمئن». غير أنّه لم يعرف العودة إلا في مناسباتٍ نادرةٍ ولمدّة يومٍ أو يومين، لكنّه لم ينسَ الماضي، أليس كذلك؟ ظلّ السيّدَ الجلف والخدوم المعروف لدى الجميع، أمّا المدبّر فكان يكذب بحديثه عن الطرد.

لا، كلّما فكّر توسان لومينو، كلّما قلّ إيمانه بأنّ سيّداً فاحش الثراء، كريماً عن طيب خاطرٍ وطيّب القلب، بإمكانه أن يكتب مثل هذه العبارات. فقط ينبغي الدفع. حسناً، سيجري الدفع! غير أنّ المرابع لا يملك مئتي فرنك في صندوق

الجوز المجاور لسريره، إلا أنّ أولاده أغنياء بثروةٍ تقدّر بنحو ألفي فرنك لكلّ واحدٍ منهم، هذه الثروة التي ورثوها عن والدتهم المتوفّية قبل ثلاث سنوات. لذلك سيطلب من ابنه الأصغر فرانسوا أن يقرضه مما يحتاجه للسيّد، ومن المؤكّد أن فرانسوا لم يكن ابناً بلا قلب ولن يترك والده محرجاً. مرّةً أخرى ستختفي حالة الريبة من الغد القادم وستأتي المحاصيل، وستكون سنةً جميلةً تعيد الفرح إلى قلوب الجميع.

وبعد أن سئم من حالة الانحناء، استقام المرابع ومرّر حافّة كمّه الصوفي على وجهه المتعرّق، ومن ثمّ نظر إلى سطح لا فرومنتيير باهتمام أولئك الذين يرون كلّ عشقهم أمامهم، ونزع قبّعته لمسح جبينه. وفي الشعاع المائل الذي لم يعد يلامس الأعشاب أو الملفوف، في ضوء ضعيفٍ ولطيفٍ كشيخوخةٍ سعيدة، رفع وجهه بملامحه الثابتة والمنحوتة بقوة. لم تكن بشرته ترابية مثل تلك الخاصة بالفلاحين البخلاء في مقاطعاتٍ معينةٍ بل كانت مشرقةً ومتغذّية: الوجنتان ممتلئتان ومحدّدتان بخطّ ضيّقٍ من الشعيرات؛ الأنف مستقيمٌ وعريضٌ من ناحيته السفلى؛ أمّا الفك، أو بالأحرى القناع بكامله، فمربّع الشكل؛ وأيضاً العيونُ رماديّة صافية، تلك العيون البرّاقة التي لم تتردّد مطلقاً في النظر إلى الوجه، تعبّر عن الصحة والقوّة ودأب القيادة؛ فيما الشفاه المتدلية، الطويلة والرفيعة رغم سمرته، فتلمّح إلى الكلام الرشيق والفكاهة شبه النبيلة لدى رجلٍ من أهوار بريتانيا

لا يحترم أيّ شيءٍ غير موجودٍ لديه إلا بصعوبة. أمّا الشعر فأبيض بكامله، غير مشذب وخفيف، وفوق الأذن يشكّل انتفاخاً ولمعاناً.

وهكذا بدا مزارع لا فرومنتيير رائعاً بانكشافه وثباته في هذا اليوم المحتضر، وفهِم لقب «السيادة» كما يقال والذي استُخدِم من أجله. وقد سمّي «لومينو الحبر» لتمييزه عن الآخرين الحاملين للاسم نفسه: لومينو المسكين، لومينو ذو اللحية الخفيفة، لومينو ذو الحبل الطويل.

تأمّل لا فرومنتيير من بعيد. بين جذوع أشجار الدردار، على بعد عدة مئاتٍ من الأمتار إلى الجنوب، كان البلاط الوردي الباهت والمغسول محاطاً بالمينا غير المنتظمة، فيما حمل الهواء ثغاء الماشية العائدة ورائحة الإسطبلات، وكذلك رائحة البابونج والشمر المنتشرين في أرضيّة البيدر. أشرقت صورة مزرعته بكاملها بأقل من تلك الموجودة في روح المرابع. وعندما رأى آخر توهُّجٍ لسقفه في محيط النهار، قام بتعداد الابنين والبنتين الذين يأوون في المنزل: ماتوران، فرانسوا، إليونور وماري روز، هذا العبء والاختبار الثقيل والوديع الذي اختلط بحياته: فابنه البكر الجميل ماتوران يعاني من سوء الحظ، فبسبب شلله حكم عليه أن يكون الشاهد المتألّم لعمل الآخرين؛ فيما حلّت إليونور مكان الأم المتوفّية؛ أمّا فرانسوا بطبيعته الرقيقة فهو من بدا فيه سيّد المزرعة المستقبلي بشكلٍ غير مؤكّدٍ وغير محتمل؛ بينما كانت روزيل هي الأصغر سنّاً، فعمرها لم يتجاوز العشرين...

هل كذب المدبّر مرّةً أخرى عندما تحدّث عن تواجد الخادم؟ ربّما. كيف يمكن لخادمٍ ابن أرملةٍ فقيرةٍ من بوكاج، تلك الأرض الثقيلة هناك، أن يجرؤ على التودّد لابنة المرابع الماريشي؟ فالصداقة بإمكانه الحصول عليها، وأيضاً احترام هذه الفتاة الجميلة التي لاحظ وجهها الوردي عندما عادت يوم الأحد من القدّاس في سالِرتِن، لكن أن يحصل على شيءٍ آخر؟ ... أخيراً سيلاحَظ ذلك... للحظة لم يفكّر توسان لومينو إلا في تلك الكلمة القذرة التي قالها الرجل، وبعد ذلك مباشرةً فكّر بلطفٍ وبقلبٍ ساكنٍ في الغائب الوحيد، في الابن الذي يكبر روزيل، أندريه صيّاد إفريقيا الذي بموجب مرسومٍ تبع عقيده، أحد أشقاء الماركيز دو لا فرومنتيير، إلى الجزائر. هذا الابن الأخير جرى تسريحه من الخدمة قبل شهرٍ من عودته، ويُنظر إليه، هذا الماريشي الأشقر الوسيم ذو الساقين الطويلتين، على أنّه صورة الأب في شبابه، مفعماً بالنبل ونابضاً بحبّ بلاد سالِرتِن والمزرعة. وتُنسى الهموم وتذوب في سعادة إيجاد ذلك الذي تختلس سيّدات شالان النظر إليه أثناء مروره وهنّ يقلن: «إنّه الوسيم الأخير من عائلة لومينو».

ظل المرابع هكذا، في كثير من الأحيان بعد الانتهاء من العمل، متأمّلاً مزرعته الصغيرة، لكن هذه المرّة بقي واقفاً لفترةٍ أطول من المعتاد، وذلك وسط التموّجات العابرة للأوراق التي بهُتت وأصبحت رماديّة اللون، كما هو الحال في ظلال الحقول المحروثة مؤخّراً. أمّا الأشجار نفسها فلم تكن

أكثر من دخانٍ خافتٍ حول الحقول، فيما السماء العظيمة شديدة النقاء، والتي انفتحت من فوق، ممتلئة بالأشعّة المهشّمة، فلم تُسقِط على الأشياء سوى القليل من غبار النهار الذي ما يزال يظهر لها دون أن يضيئها. وضع لومينو يديه كمكبّر صوتٍ أمام فمه واستدار نحو لا فرومنتييير صارخاً:

- روزيل!!!

أوّل من ردّ على النداء كان الكلب باروج المندفع كإعصارٍ من نهاية الغرفة. ومن ثمّ علا صوتٌ فتيٌ وصافٍ من بعيدٍ وعبر الفضاء:

- أبي، دعنا نذهب!

وعلى الفور انحنى الفلاح وأمسك بحبلٍ لفّ به كومةً من الأوراق المقطوفة وشدّ عليها، وسار خلف الثلم حاملاً الحمولة بلمحة كتف، متأرجحاً تحت وطأةِ الحزمة الضخمة التي امتدّت بجميع أطرافها فوق ظهره، ذراعاه مرفوعتان ورأسهُ غارقٌ في الحصاد الناعم، واستدار ونزل في المسار الذي رسمته أقدام البشر والحيوانات في العشب. وعندما وصل إلى زاوية الحقل، أمام ثغرةٍ في السياج، انتصب جسدٌ ممشوق القوام لفتاةٍ يافعةٍ في وضوح الفجوة.

- مساء الخير يا أبي! قالت الفتاة.

لم يستطع إلا أن يفكر في العبارات المشينة التي قالها الحارس ولم يجب.

أمّا ماري روز، بوضعها لقبضتيها على وركيها وهازّةً برأسها الصغير كما لو أنّها تفكّر في أمورٍ خطيرة، فقد راقبته وهو يبتعد. ومن ثمّ دخلت الأثلام والتقطت بقية الأوراق المتروكة على الأرض وربطتها بالحبل الذي أحضرته، وحملت الكتلة الخضراء على غرار الأب. ومن ثمّ انطلقت منحنيةً ومسرعةً على طول حافّة الحقل.

إنّ دخول الحقل وجمع الأوراق وربطها يستغرق عشر دقائق فقط، ومن بعدها على الأب أن يعود إلى المنزل. كانت تقترب من المنحدر عندما صدرَ صفيرٌ كصفير الدحروج(0) فجأةً من أعلى المنحدر الذي كانت تتبع كعبه، لكنّها لم تكن خائفة. كان رجلٌ يقفزُ في الحقل فوق العليق. ألقت روزيل حمولتها أمامها على الدرب ولم تتحرّك بعدها أكثر من ذلك، وبدآ يدردشان مع بعضهما البعض من خلال جملٍ مقتضبة.

- آوه روزيل! كم حمولتكِ ثقيلة!

- أنا قويّة، هيّا بنا! هل رأيت أبي؟

- لا، أنا قادم. هل تحدّث بشيءٍ عنّي؟

- لم يقل شيئاً، لكنّه نظرَ إليّ بطريقة! ... صدقني يا جان، إنّه مرتاب. هذه الليلة لا ينبغي أن تقضيها في الخارج، فهو لا يحبّ الصيد الجائر، وسوف يوبّخك.

- ما الذي يهمه من اصطيادي في الليل إذا كنت أعمل صباحاً في وقتٍ مبكرٍ كأيّ شخصٍ آخر؟ هل ينبغي عليّ الإحجام عن العمل؟ أولئك الآتون من لا سولييز، وكذلك

الطحان الآتي من موكسوري، أخبروني أنّ طيور الدحروج بدأت بالمرور عبر الأهوار. سأصطاد بعضها على ضوء القمر الذي سيكون بدراً هذه الليلة، وستحصلون عليها صبيحة يوم غد.

- لا ينبغي عليك فعل ذلك يا جان، أؤكّد لك. قالت ماري روز.

كان الرجل يحملُ بندقيّةً على كتفه، ويرتدي فوق صداره البنيّ بلوزةً قصيرةً للغاية بالكاد تصل إلى خصره. كان شاباً قصيراً بنفس طول روزيل، عصبيّاً جدّاً وبشرته شديدة السواد، بملامح شاحبةٍ ومنتظمةٍ مقطوعةٍ بشاربين بالكاد يرتفعان إلى زوايا فمه، ويشير لون بشرته وحده إلى أنّه لم يولد في الأهوار، حيث الضباب يليّن ويحمّر الجلد، بل في بلدٍ من الأرض الصلبة في بؤس الخزانات المتجاهَلة. ومع ذلك بإمكان المرء أن يخمّن من وجهه العظميّ والمضغوط، وكذلك الخط المستقيم للحاجبين والحركة المستقيمة للعيون، مصدر طاقةٍ لا تقهر وإصراراً لا يقوّضه أيّ تناقض. لم تزعجه مخاوف ماري روز للحظة، فالقليل من أجل حبها، والكثير لجاذبية الصيد والغارات الليلية التي تهيمن على العديد من الأرواح البدائية مثله، عقد العزم على الذهاب للصيد في تلك الليلة في الأهوار، ولا شيء سيجعله يستسلم ولا حتى فكرة استياء روزيل. هذا وقد بدت كأنّها طفلة، فبخصرها المسطّح ونضارتها المارشيّة، وكذلك خدّيها البيضاويين بكاملهما والمنحنى النقي لشفتيها، المشدود

على الصدغ قليلاً بواسطة شريطين ناعمين، وأيضاً بشفتيها المستقيمتين اللتين لا أحد يعرف ما إذا كانتا ستستقيمان لتضحك أو لتبكي، بدت كتلك العذارى الناميات اللواتي يسرن في المواكب حاملاتٍ للافتة. وحدهما عيناها عينا امرأة، بلونهما الكستنائي الناضج القريب من لون شعرها، وفيهما تحيا وتتألّق رقّةٌ صغيرةٌ جدّاً، لكنّها جادةٌ ووقورةٌ بالفعل، ومن المؤكّد أنّها ستدوم. ودون أن تدري ظلت معشوقة خادم والدها هذا لفترةٍ طويلة، ومنذ عامٍ أصبحت شريكته بشكلٍ سرّي. تحت غطاء الرأس المصنوع من الموسلين والمزهر على شكل هرم، وهو الغطاء السالِرتِني، ينظرُ إليها العديد من أبناء المرابعين ومربي الخيول والثيران كي تتمكن من النظر إليهم عندما تغادر القداس أيام الأحد. غير أنّها لم تهتمّ بهم، فقد وعدت نفسها لجان نيسمي، ذلك الشاب الغريب والفقير وقليل الكلام، والذي لا مكان أو سلطة أو محبّة له إلا في قلب هذه الصغيرة، وبالفعل كانت تطيعه. لم يتحادثا مع بعضهما في المنزل، ولكن في الخارج، عندما يصبح بإمكانهما اللقاء ببعضهما، فكانا يتحادثان على عجلٍ دائماً بسبب رقابة الأخوة، وخاصّةً ماتوران العاجز، الغيور والمتسكّع بشكلٍ رهيب. هذه المرّة أيضاً ينبغي ألّا يباغتا. سأل جان نيسمي بسرعةٍ دون التوقف عند مخاوف ماري روز:

- هل أحضرتِ كلّ شيء؟

- أجل. قالت له مستسلمةً دون إلحاح.

وفيما أخذت تفتّش في جيب ثوبها، تناولت زجاجةً نبيذٍ

وشريحةٍ من الخبز الكبير، ومن ثمّ رفعت الغرضين بابتسامةٍ أضاءت وجهها في الليل الرماديّ بكامله.

- هناك عزيزي جان! قالت له. واجهت مشكلة: ليونور تراقبني دائماً، وماتوران يتبعني في كلّ مكان.

وبدا صوتها يغنّي كأنّها تقول «أحبّك»، وأضافت:

- متى ستعود؟

- عند الفجر عبر البستان المغلق.

وبينما كان يتحدّث رفع الشاب قميصه وفتح حقيبة قماشية أحضرها من الكتيبة وعلقها حول رقبته، وفيها وضع النبيذ والخبز. مشغولًا بهذه التفاصيل، ومركّزاً عقله على شيءٍ من اللحظة، لم ير روزيل تصغي منحنيةً إلى ضجّةٍ قادمةٍ من المزرعة، وعندما قام بتبكيل زرّي الحقيبة كانت الفتاة لا تزال تصغي.

- ما الذي سأجيب به بحال طلبك الأب الآن؟ سألت بجديّة. ها هو ذا، يدفع باب المخزن.

تلمّست يدُ جان نيسمي قبّعته المصنوعة من اللباد، والتي لا جديلة لها وحجمها أكبر من معيلاتها الموجودة في الأهوار، وافترّ ثغره عن ضحكةٍ خفيفةٍ فبدت أسنانه بيضاء كالرغيف الطازج وقال:

- ستخبران الأب أنّني أمضيت الليلة بالخارج لإحضار بعض طيور الدحروج لصديقتي العزيزة! طابت ليلتكِ يا

روزيل!

واستدار متوجّهاً نحو الجسر الذي ارتقاه بسرعةٍ قبل أن يقفز إلى الحقل المجاور، ولثانيةٍ فقط اهتزّت ماسورة بندقيّته فيما كان يتحرّك بعيداً بين الأغصان.

بدا توسان لومينو قلقاً وظلّ هادئاً، فيما تناقض وجهه العجوز، الرائق والرجولي، مع الوجه المشوّه للبكر ماتوران. ذات مرّةٍ ظهرا متشابهين، ولكن منذ المحنة التي لم يجرِ الحديث عنها مطلقاً، والتي طاردت كلّ الذكريات في لا فرومنتيير، لم يكن الابن أكثر من صورةٍ كاريكاتورية للأب، والنسخة المشوّهة والمعذّبة عنه: الرأس الضخم المغطّى بشعرٍ بلونٍ ثعلبي غارقٍ بين الكتفين المرتفعين والسخينين؛ فيما عرضُ الصدر وطول الذراعين واليدين يشيران إلى حجمه الهائل، لكن عندما يقف هذا العملاق بين عكازاته فمن الممكن رؤية جذعٍ متقلقلٍ وملتوٍ بالكامل، وساقين متدلّيتين، مثنيّتين ومترهّلتين؛ وينتهي جسدُ هذا المعذّب بمغزلين عضليين ضامرين لا يقدران على إسناده لأكثر من بضعِ ثوانٍ، وكانت الحياة تنسحبُ منه شيئاً فشيئاً دون راحة. بالكاد تجاوز الثلاثينيات من عمره، بيد أنّ لحيته التي تصل حتى عظام وجنتيه رماديّة في بعض الأماكن. وفي وسط هذه اللحية الكثّة الملتصقة بالشعر والمضفية عليه شيئاً من الصهابة، فوق عظام الوجنتين المبقّعتين بالدم الموحل، يُكشَف عن عينين زرقاوين داكنتين، صغيرتين وحزينتين، ينفجرُ منهما، على حين غرةٍ في بعض الأحيان، العنف

الغاضب لهذا المحكوم بالموت الذي يعدّ كلّ لحظةٍ من عذابه، فنصف جسده يشهد، بغضب من العجز، على الألم البطيء للآخر؛ فيما تتقاطع التجاعيد في الجبين وتقطعُ الفجوة بين الحاجبين. «لومينو الكبير المسكين، أجمل أبنائنا، يا لما حلّ به!» كانت الأم تقول ذلك.

كانت محقّةً في الشفقة عليه، فقبل ستّ سنواتٍ عاد من الفيلق رائعاً مثلما غادر. ثلاث سنواتٍ داخل الثكنات انزلقت، دون كسرها تقريباً، على طبيعته الفلاحيّة والبريّة، على أحلامه في الحرث والحصاد وعلى عادة الاعتقاد بأنّه سيجني قوته من عرقه. دافع الاحتقار الفطري للمدينة عن كلّ ذلك دفعةً واحدة، وقيل عندما رأوه مرّةً أخرى: «إنّ بكر عائلة لومينو ليس كسواه من الرجال، فهو لم يتغيّر قط». ولكن ذات مساء، فيما كان يقود حمولةً من القمح إلى طحّان شالان، عاد في عربته الفارغة. بالقرب منه، أثناء جلوسه على كومةٍ من الأكياس، أصغى لضحكِ فتاةٍ سالِرتِنية من لا سوليير، واسمها فِليسيتيه غوفري، وأراد أن يتخذها زوجة له. كانت المسارات ممتلئة بالظلال، والأثلام ممتزجة بحزمات الأوراق. ومع ذلك كان منشغلاً تماماً بصديقته الحميمة، ومع العلم أنّ الحصان يعرف الطريق، لم يمسك باللجام الذي وقع وانجرّ على الأرض، وفيما كانا ينزلان منحدراً شديداً بالقرب من لا فرومنتيير، أخذ الحصان الذي ضربه غصنٌ بالعَذوِ، وبدت العربة المتمايلة من جنبٍ إلى آخر مهدّدة بالانقلاب، وعلت العجلات عن المنحدرات وأرادت الفتاة القفز، فصرخ

الرجل: «لا تخافي يا فِليسيتيه، دعيني أتولّى الأمر»، فنهض على قدميه واندفع إلى الأمام ليمسك الحصان من اللجام ويوقفه، لكن الظلام، والصدمة، والمصيبة خدعته أخيرًا: انزلق على طول الحزام، وخرجت صرختان معًا، إحداها من أعلى العربة وأخرى من أسفلها، إذ مرت العجلات على رجليه. وعندما تمكنت فليسيتيه غوفري من الركض إليه رأته يحاول النهوض دون أن يستطيع ذلك. ولمدة ثمانية أشهر ظلّ ماتوران لومينيو يصرخ من الألم، ومن بعدها تلاشت الشكوى وتباطأت المعاناة، لكنّ الموت وُضِع في قدميه ثمّ في ركبتيه دون أن يتركه قط... وفي الوقت الحالي بات يسحبُ نصف جسده خلفه، يزحفُ على ركبتيه ومعصميه المتورمين. ما زال بإمكانه قيادة زورقٍ في قنواتِ الأهوار، لكنّ المشي يرهقه بسرعة. داخل عربةٍ خشبية، حيث يضطر الأطفال في المزارع للعب بها، يصطحبه والده أو شقيقه إلى الحقول البعيدة حيث يسبقهم المحراث، ويهتمّ، بلا فائدة، بالعمل الذي ولد من أجله والذي ما يزال يحبه بشدة، «لومينو الكبير المسكين، أجمل أبنائنا!». اختفت كلّ أشكال البهجة، وتغيّرت الروم مثلما تغيّر الجسد، فقد أصبحت منغلقةً وبات متحجّراً، مفعماً بالشك ولئيماً، وبات جميع إخوته وأخواته يخفون تحرّكاتهم عن هذا الرجل الذي تُعتَبَر سعادة الآخرين تحدّياً لألمه، ويخافون من قدرته على كشف مشاريع الحب ومن غدره الذي يسعى لكسرهم. إنّ الشخص الذي لا يُحَب لا يريد لغيره أن يحِب. وفوق كلّ هذا لا يريد لأيّ شخصٍ أن يأخذ المكان الذي كان من حقّه باعتباره الابن البكر، أي

سيّد المستقبل، في خلافة أبيه بالإشراف على هذه المزرعة. لذلك كان يغار من فرانسوا، وحتى من أندريه صيّاد إفريقيا الوسيم والابن المفضّل لدى الأب، كما أنّه يشعر بالغيرة من الخادم الذي يمكنه أن يصبح خطراً عليه بحال تزوّج من روزيل. يقول ماتوران لومينو في بعض الأحيان: «لو أنّني تعافيت! أعتقد أنّني سأكون بحالٍ أفضل!»، وفي أحيانٍ أخرى يلفّهُ ضربٌ من الحنق، فيظلّ لأيّامٍ صامتاً ومنسحباً في زوايا المنزل أو الإسطبلات، لتأتي الدموع بعدها وتذيب غضبه. في مثل هذه الأوقات بإمكان شخصٍ واحداً الاقتراب منه، ألا وهو الأب، وشيءٌ واحدٌ بإمكانه أن يليّن الرجل العاجز، ألا وهو رؤية حقوله وحرث ثيرانه، وعمليات البذر التي سيلد منها الشوفان والقمح، والآفاق التي عرف فيها الحياة كاملة. وفي السنوات الستّ التي تركته فيها، لم يعاود الظهور في سالِرتِن، حتى في أيّام عيد الفصح الذي لم يعد يقوم بطقوسه، وبالتالي لم يسبق له أن التقى فليسيتيه غوفري، ابنة لا سولييز، وهو في طريقه، بل اكتفى بسؤال إليونور عنها بين الحين والآخر: «هل سمِعت أنّها ستتزوّج؟ هل ما زالت جميلة كما في الأيام التي كنّا فيها أصدقاء؟».

عندما دخلت ماري روز الغرفة الخاصة في لا فرومنتييز، كان هو وحده الذي نظر إليها خلسة، وبدا لها أنه كان يضحك بشدة، وأنه رأى أو خمن رحيل الخادم.

- ها هو الحساء قد انتهى تحضيره. قال المرابع. تعال يا ماتوران وتناول شريحةً من لحم الخنزير المقدّد معي!

- لا، كلّ يومٍ نفس الطعام لدينا!

- هيه! إنّه أفضل بكثيرٍ من غيره. أجاب الأب. لحمُ الخنزير المقدّد جيّد، وأنا أحبّه!

لكنّ العاجز دفع الصحن بعيداً وهزّ كتفيه مغمغماً:

- لعلّ اللحوم الأخرى باهظة الثمن الآن، أليس كذلك؟

عقد توسان لومينو حاجبيه مستذكراً الازدهار السابق في لا فرومنتييز، لكنّه قال دون أن يغضب:

- بالفعل إنّ هذا العام صعبٌ والنفقات كثيرةٌ عزيزي ماتوران المسكين!

ومن ثمّ رغب بتغيير الموضوع فسأل:

- ألم يعد الخادم بعد؟

فأجابته ثلاثة أصواتٍ واحداً تلو الآخر:

- لم أره أبداً!

- ولا أنا!

- ولا أنا!

وبعدَ برهةٍ من الصمت، فيما شخصت خلالها كلّ العيون إلى جانب المدفأة، قالت إليونور:

- ينبغي أن نسأل روزيل عن ذلك، يجب أن يكون لديها بعض الأخبار.

استدارت الشابة الصغيرة نصف استدارةٍ نحو الطاولة، فرسم انعكاس النار صورة ظليّة لها، وأجابت:

- لديّ بعضها بلا شك، فقد التقيت به عند استدارة المسار لدينا: إنّه ذاهبٌ للصيد.

- أيضاً! قال المرابع. ومع ذلك على هذا الأمر أن ينتهي. فبينما كنت أحزم الملفوف هذا المساء، قام مدبّر السيّد الماركيز بتوبيخه على صيده الجائر.

- أليس حزاً في الذهاب لصيد طيور الدحروج؟ سألت روزيل. الجميع يذهب إلى ذلك.

أطلق كلٌّ من فرانسوا وإليونور دمدمة ازدراءٍ للتعبير عن عدائيّتهما تجاه هذا البوكيني الغريب صديق روزيل، فيما انحنى الأب مرّةً أخرى فوق الصحن مطمئناً إلى أنّ المدبّر لن يزعج صيد جان نيسمي في الأهوار بالتأكيد، فهي أرضٌ محايدةٌ فيها ينهب الجميع قطعان الطيور المارّة كما يشاؤون. بدأ فرانسوا يشعر بالنعاس ولم يعد يأكل، فيما كان العاجز يشرب ببطء والعيون ضبابيّة أمامه، ربّما يفكّر في الصيد الذي كان مولعاً به أيضاً. سادت لحظة سلامٍ واضحة، ودخلت الريح من خلال شقوق الباب بصفيرٍ ناعم، ريحٌ صيفيّة سويّة كحركة المدّ والجزر. جلست الفتاتان قبالة المدفأة لتنهيا العشاء بتفّاحةٍ مقشّرة بعناية.

لكنّ روح المرابع تحرّكت من خلال الحديث مع المدبّر وكلمة ماتوران التي قالها منذ قليل: «لعلّها باهظة الثمن الآن».

استعاد العجوز السنوات الماضية، والتي خلالها لم يكن أبناؤه المجتمعين هناك، كشهودٍ غير متكافئين، يعرفون سوى الجزء الأكبر أو الأصغر وفقاً للعمر. كان ينظر أحياناً إلى ماتوران وأحياناً أخرى إلى فرانسوا كما لو أنه يستحضر ذكراهما كسائسين صغيرين للثيران وصيّادين لثعابين البحر، وانتهى به المطاف بالقول عندما بدت روحه ممتلئةً للغاية بعدم الرغبة بالحديث:

- تغيّر الريف كثيراً هنا منذ أيّام السيّد الماركيز، هل تتذكّره يا ماتوران؟

- نعم أتذكّره. أجاب الصوت الحاد للعاجز. أتذكره: رجلٌ سمينٌ دميم الرأس، ويصرخُ عندما يأتي إلينا: «مساء الخير يا فتيان! هل ما زال لدى بابا زجاجة قديمة من الموسكاديت في القبو؟ هل ستجلبها لي يا ماتوران، أو أنت يا فرانسوا؟

- كان كما قلت، يشرب بإفراط. استأنف الرجل الطيب بابتسامةٍ رقيقة. لا يمكن للمرء أن يجد نبلاء أكثر تفاخراً من نبلائنا، فهم يروون حكاياتٍ تُضحك الناس. ومن ثمّ فهم أغنياء يا أولادي! لا يمانعون في الصبر على الإيجارات السنويّة حين يكون الحصاد سيئاً، حتى أنّهم أقرضوني أكثر من مرّةٍ لشراء ثيرانٍ وبذار. إنّهم أناسٌ مفعمون بالحيويّة، على سبيل المثال! لكن مع من يتعاون معهم، فيما وكلاء أعمالهم...

ولوّح بيده بعنفٍ كأنّه يرمي شخصاً على الأرض.

- أجل، عالمٌ حزين. قال الابن البكر.

- والآنسة آمبروازين؟ جاءت لتلعب معك يا إليونور، ومع روزيل بشكلٍ خاص، لأنّها بين إليونور وروزيل في العمر. أعتقد أنّها اليوم في الخامسة والعشرين من عمرها. كم بدت جميلة يا إلهي بغطائها المصنوع من الدانتيل، بشعرها الملفوف كما تلفّه قديسة الكنيسة، بتحيّتها المبهجة للجميع عندما تمر في سالِرتِن! للأسف تركوا البلاد! هناك من لا يندم عليهم، لكنني لست منهم.

هزّ العاجز بطنه الضخم، وقال بصوته الذي يتضخّم عند أدنى تناقض:

- هل بإمكانهم أن يفعلوا خلاف ذلك؟ إنّهم مفلسون.

- أووه! مفلسون! ينبغي رؤية ذلك.

- عليكم فقط أن تروا القصر المغلق منذ ثماني سنواتٍ كالسجن، والاستماع إلى ما يقال. جميع ممتلكاتهم محجوزٌ عليها، وكاتب العدل لا يتردّد في قول ذلك، وسترون أنّ لا فرومنتيير ستباع، وكذلك نحن.

- لا يا ماتوران، لن أرى ذلك والحمد لله: سأموت قبل أن يحصل هذا الأمر. ومن ثمّ فإنّ نبلاءنا ليسوا مثلنا يا بني، فلديهم دائماً ميراث يصلهم عندما يبدّدون القليل من أموالهم. لدي أملٌ أفضل منك، لدي إحساسٌ أنّ السيّد هنري سيعود في يوم من الأيام إلى قصره، وأنه سيأتي إلى حيث أنت ماداً يده: «مرحبًا يا أب لومينو!»، وكذلك الآنسة أمبروازين

التي ستكون سعيدة جدًا بتقبيل بناتي على الخدين في الماراشين: «مرحبًا إليونورا مرحباً ماري روزا». قد يكون ذلك أقرب مما أعتقد.

رافعاً عينيه ومحدّقاً بهما في لوحة المدفأة، بدا العجوز وكأنّه رأى ابنة أسياده بين إليونور وروزيل. شعر بشيءٍ من المشاعر، بدايات دمعةٍ بلّلت جفنيه.

لكن ماتوران ضرب الطاولة بقبضته ووجّه وجهه الغاضب نحو الأب:

- هل تعتقد أنّهم يفكّرون بنا؟ آه؟! بالطبع لا! إذا فكّروا بشيءٍ ما فهو يوم عيد القدّيس يوحنّا! أراهن أن المدبّر طلب منك مرة أخرى أن تدفع، المتسوّل لديه هذه الكلمة فقط في فمه.

استند توسان لومينو على العاجز مفكّراً، ومن ثمّ قال بصوتٍ خفيض:

- تماماً. فقط من غير المعروف ما إذا كان السادة قد أمروه بالتحدث كما فعل يا ماتوران! كثيراً ما يلفّق أحاديث!

- جميل! جميل! وبماذا أجبته؟

- بأنني سأدفع في عيد القدّيس ميخائيل.

- وماذا؟

منذ برهةٍ انسحبت الفتاتان نحو المطبخ الموجود على يسار الصالة الكبيرة، ومن هناك أمكن سماع صوت غسيل

الأطباق والمياه المتحرّكة. وكلّ مساءٍ يبقى الرجال على هذه الحال فيما بينهم، تلك هي الساعة التي يعالجون فيها شؤون المصلحة. سبق للمرابع في العام الفائت أن اقترض من الابن البكر الجزء الأكبر من نصيبه من ميراث الأم، وبالتالي كان يأمل في مساعدة أخيه الأصغر فقط، لكنه لم يشك في ذلك إلا قليلاً لدرجة أنه أجاب بصوتٍ خفيضٍ لئلا تسمعه النساء:

- أعتقد أن فرانسوا سيساعدنا.

عندها أجاب الأصغر الذي أثاره النقاش من نعاسه بحدّة:

- آه! لكن لا! لا تعتمدوا عليّ! ذلك لا يمكن أن يكون...

ولم يجرؤ على معارضته وجهاً لوجه، بل حدّق في الأرض بين ساقيه كتلميذ.

ومع ذلك لم يغضب الأب، بل قال بهدوء:

- سأعوّضك يا فرانسوا، كما سأقوم بتعويض أخيك، فالسنوات ليست متشابهة والحظّ سيعود إلينا.

ولبث منتظراً وهو ينظر إلى شعر ابنه الكثيف والمجعّد وعنق الثور الصغير الذي بالكاد يبرز من الطاولة. ولكن بات لزاماً على الآخر أن يتخذ قراراً حاسماً ومدروساً بشكلٍ جيّد، وذلك لأن الصوت، المصاب بالصمم بسبب الملابس التي فُقد فيها، ذهب إلى ما يلي:

- لا أستطيع يا أبي، لا أنا ولا إليونور، فأموالنا ملكنا، وكلّ واحدٍ حرّ في كيفيّة التصرّف بها، أليس كذلك؟ يتمّ استثمار

أموالنا في هذا الوقت. ما الذي نفعله حيال الماركيز الذي ينتظر منذ عام، بما أنّك تقول إنّه غنيّ جداً؟

- ما الذي نفعله يا فرانسوا؟

عندئذ فقط أصبح كلام الأب انفعالياً وسلطوياً. لم يغضب، لكنّه شعر بالأذيّة كأنّه لم يتعرّف على دمه، وكأنه لاحظ فجأةً التغيير الكبير الذي حدث من جيلٍ إلى جيلٍ دون أن يفهم ذلك، فقال:

- أنت لا تتحدّث حسب ذوقي يا فرانسوا لومينو. أريد دفع ما أدين به. لم أتلقّ منهم أيّ إهانة، فيما أظهرنا لهم، أنا ووالدتك وماتوران الذي عرفهم أكثر منك، الاحترام دائماً. هل تسمع؟ بإمكانهم أن ينفقوا أموالهم كيفما يشاؤون، فهذا ليس من شأننا. ألّا ندفع لهم؟ لكن أتعلم أنّه بإمكانهم طردنا من لا فرومنتييير؟

- باه! قال الأصغر. أن نكون هنا أو في أيّ مكانٍ آخر، ما الذي سيغيّره ذلك لنا، أن نزرع الأرض؟!

وتردّد صدى طلقةٍ ناريّةٍ بعيدةٍ في الأهوار، والضوضاء التي وصلت أقل من تلك التي تحدثها شعلة. سمع توسان لومينو ذلك وفجأةً عاد للتفكير في الرجل الذي يصطاد هناك. في الوقت نفسه صدر صوتٌ في الفناء من خلفه:

- ها هو دحروج مذبوحٌ لأجل روزيل!

- اصمت يا ماتوران! قال الأب الذي تعرّف على العاجز

دون أن يلتفت إليه. لا تتقوّل عليها حكايا لا ترضيني، فأنت تفهم ذلك جيّداً. أشعرُ بحزنٍ كافٍ هذا المساء يا صديقي، فقد سئمت من فرانسوا.

واقتربت العكازات المصطدمة بحجارة الفناء، وشعر المرابع على علوّ الكتف بمسحة شعر العاجز الذي وقف بجانبه ورفع رأسه.

- أنا لا أقول سوى الحقيقة يا أبي، وهذه ليست حكايا. قال البكر بصوتٍ خفيض. إن رؤيتي لهذا البوكيني الذي يتودّد لأختي كي يحصل على نصيبٍ من ممتلكاتنا ليكون سيّدنا، وهو الذي لا شيء له فيها، يشعرني بغليان دمي! حان الوقت لإعادته إلى رشده.

- أتعتقد حقّاً أنّ فتاة مثل روزيل ستستمع إلى خادمي؟ ردّ الأب وهو منحنٍ قليلاً. أهي على علاقة حبٍّ معه يا ماتوران؟

كان توسان لومينو من الضعف ما جعله يصدّق بسهولةٍ حكم ابنه الأكبر وشجبه. حتى الآن بعد أن انتهى الأمل في أن يكون خليفته، وعلى الرغم من كثرة الأدلة التي حصل عليها فيما مضى عن العنف المرضي والشرور لدى العاجز، فقد ظل تأثير هذا الأخير كبيرًا في ذهن الأب. سمع المرابع هذه الكلمات ترتفع كالنفس:

- إنّهما مغرمان ببعضهما يا أبي!

وتشوّهت ملامح ماتوران فجأةً من الرعب الناتج عن

سعادة الآخرين. نظر توسان لومينو إلى الوجه المرفوع نحوه والمبيضّ بشدّةٍ تحت ضوء القمر، فأذهله تعبير المعاناة الذي قلّص من ملامح المريض.

وتابع الابن:

- بحال راقبتهما كما أفعل، ستلاحظ أنّهما لا يتحدّثان مع بعضهما البعض في المنزل، لكنهما يسيران دائماً في نفس المسار في الخارج. تفاجأت بهما عدّة مرّاتٍ يضحكان ويتحادثان كعاشقين يحظيان بموافقة آبائهما. هذا جان نيسمي لا تعرفه، إنّه جريء، يجعلك تعتقد أنّه محبٌ للصيد، أنا لا أقول لا، لكنّني لم أرَ شخصاً محبّاً لذلك مثله. هل من دواعي سروره فقط أن يذهب حتى أطراف الأهوار ليصطاد اثنين من طيور الدحروج، وأن يصاب بحمّى لدغ الحنكليس وابن عرس، وأن يقضي ليالي كاملةً في الخارج بعد العمل أثناء النهار؟ أبداً. كلّ هذا لأجل روزيل، لأجل روزيل، لأجل روزيل.

وارتفع صوته وبات من الممكن سماعه في كافة أرجاء المنزل.

- سأرى بعينيّ يا بني، لا تقلق. قال الأب.

- آه! لو كنت مكانك لذهبت عند فجر الغد نحو طريق الأهوار، ولو رأيتهما معاً...

- كفى! قاطعه المرابع. إنّك لا تفعل شيئاً بشكلٍ جيّد سوى المرثرة يا ماتوران. ها هي ليونور تبحث عنك.

وبالفعل جاءت البنت الكبرى من خلفهم، وعلى عادتها أتت لمساعدة ماتوران الذي كان يجاهد لتسلّق درجات العتبة وفك رباط النعل الذي يواجه صعوبةً في خلعه. وبمجرّد أن لمست ذراعه تبعها، وتلاشى صوت العكّازات والخطوات المختلطة ببعضها، وتُرِك الأب لوحده.

- لنذهب. فكّر بصوتٍ عالٍ. إن كان ذلك صحيحاً، فلن أسمح للناس بالضحك عليها لفترةٍ طويلةٍ في الأهوار!

وشهق شهقةً كبيرةً كما لو كان يحتسي جرعةً من نبيذٍ شبه صافٍ، ومن ثمّ أراد التأكّد أنّ روزيل لم تغادر، فدخل المنزل من بابه الأوسط، وهو باب غرفة البنات. في الداخل أمسى الظلامُ شديداً، وبالكاد يُرى انعكاس ضوء القمر على الخزانات الخشبيّة المشمّعة الخمس والتي تزيّن غرفة إليونور وروزيل النظيفة والمرتّبة على الدوام. تحسّس المرابع محيط الخزانة الكبيرة المصنوعة من خشب الجوز، والتي كانت مهر والدته، وعبر الغرفة، وكان على وشك الدخول إلى المطبخ المتصّل بالغرفة التي ينام فيها مع ماتوران عندما ظهر ظلٌّ خلفه عند زاوية السرير.

- أبي؟

توقّف قائلاً:

- أهذا أنت يا روزيل؟ أأنت نائمة؟

- لا، أنتظرك لأنّني أودّ قول شيءٍ لك...

وكانا منفصلين على طول الغرفة بالكامل ولم يريا بعضهما البعض.

- بما أنّ فرانسوا لا يستطيع أن يعطيك ماله، فقد فكّرت أن أعطيك مالي.

أجاب المرابع بنبرةٍ قاسية:

- ألا تخشين من أنّني قد لا أرجعه لك؟

استأنف صوتها الشاب تلعثمه كما لو أنّ الترحيب أحبطه وتوقّف في الزخم:

- سأذهب لجلبه غدًا... إنه مع ابن شقيق ميشلون... سأذهب بالتأكيد وبعد غد سيكون لديك.

---

(1)أي المزارع العامل في الأرض بموجب عقد إيجار (المترجم).

(0)أو أبو طيط (بالإنكليزية Lapwing) طائرٌ من فصيلة طيور الهدهد، ولكنه مائيّ يتواجد في كل أنحاء أوروبا ويهاجر لشمال أفريقيا في شتاء (المترجم).

II

البستان المسوّر

سرعان ما غدا توسان لومينو والخادم في المخزن، المليء بالبراميل الفارغة والسلال والمجارف والمعاول، والذي ظلّ لفترةٍ طويلةٍ يستخدم كغرفةٍ للخدم في لا فرومنتييز. جلس السيّد على زاوية السرير دون أن تتغيّر تعابير وجهه. إنّه نفس الشعور بالرضا والأبوة والكرامة الذي اختلط فيه الأسف على الافتراق عن خادم صالح والعزم النشِط على عدم التعرض لهجوم على سلطته أو إهانةٍ لمكانته. كان يتكئ على برميلٍ قديمٍ، ما زالت عليه قطرات من الشحم، حيث وضع جان نيسمي شمعته في المساء، ورفع رأسه ببطءٍ في ضوء النهار الآتي من الباب المفتوح، وتحدث أخيرًا إلى الشاب الذي خلع قبعته وكان ما يزال واقفاً في وسط الغرفة الصغيرة.

- كنتُ قد تعهّدت لك بأربعين فرنكاً ذهبيّاً. قال له. وقد استلمتَ مستحقّاتك في عيد مار يوحنّا. كم تبقّى لأدفع لك اليوم؟

انغمس الصبيّ في العدّ بأصابعه على قماشة بلوزته، وتوتّرت عروق جبينه جراء جهد عقله. كانت نظراته ثابتة على الأرض، ولم تتخطّ أيّة فكرة أخرى تلك العملية المعقدة لهذا الريفي الذي يحسب سعر عمله.

خلال هذا الوقت تذكّر المرابع تاريخ هذا البوكيني بشكلٍ

مختصر، وهو الذي جاء بالصدفة إلى الأهوار للبحث عن رماد الروث الذي يستخدمه الفونديّون كنوعٍ من السماد، فاستؤجر على الفور واعتاد بسرعةٍ على هذا البلد الجديد. كانت الأعوام الثلاثة التي عاشها هذا الغريب تحت سقف لا فرومنتيير، عامٌ قبل خدمته العسكريّة وعامان بعدها، أعواماً من العمل الشاق والباسل، من السلوك الصادق دون أيّ ملامةٍ شنيعة، من التنازل المفاجئ رغم عداء الأبناء الذي بدا من اليوم الأول ولم يبطل تأثيره على الإطلاق.

- ينبغي أن تكون خمسة وتسعين فرنكاً. قال جان نيسمي.

- وهذه أيضاً حساباتي. قال المرابع. خذ، هذا هو مالك، تأكد إن كان لا ينقصه شيء.

من جيب سترته، حيث وضع المبلغ المستحق عليه مقدمًا، سحب توسان لومينو كومة من العملات الفضية ورماها فوق غطاء البرميل.

- خذ يا بني!

جفّل الآخر دون أن يلمسها.

- لا تريدني عاملاً في لا فرومنتيير بعد الآن أليس كذلك؟

- لا يا فتى، سترحل.

وخفُت الصوت قبل أن يتابع:

- أنا لا أصرِفُك لأنّك كسول، ولا ألومك على ولعك الكبير بالصيد رغم انزعاجي من هذا الأمر. الأمر فقط هو أنّ ابنتي

لي يا جان نيسمي، ولا يمكنني مقارنتك بروزيل.

- وإن كان الأمر متعلّقاً بذوقي وذوقها يا سيّد لومينو؟

- لستَ من أبناء منطقتنا أيّها الفتى المسكين، وأن يتزوّج رجلٌ بوكيني من فتاة مثل روزيل، فهذا ما لا يمكن حدوثه كما تعلم، كان من الأفضل لك لو فكّرت مليّاً في الأمر.

لأول مرّةٍ أغمض جان نيسمي عينيه نصف إغماضةٍ وبات أكثر شحوباً، وانخفضت شفتاه نحو زوايا وجهه كما لو كان على وشك البكاء.

واستأنف بصوتٍ شديد الانخفاض:

- سأنتظر لأجلها إن كنت ترغب، هي شابّة وأنا كذلك. أخبرني فقط عن الوقت وسأوافق.

لكن المرابع أجاب:

- لا، لا يمكن لذلك أن يحصل. عليك الذهاب.

اضطرب الخادم في كافّة أنحاء جسده، وتردّد للحظةٍ عاقد الحاجبين وثابت النظرات نحو الأرض، ومن ثم ارتأى ألا يقول ما يفكّر فيه: «لن أتخلّى عنها، سأعود وسآخذها». شأنه شأن أولئك المنتمين إلى جنسه قليل الكلام، حبس سره وجمع النقود وعدها، وألقى القطع النقدية واحدة تلو الأخرى في جيبه. ودون إضافة أيّ كلمة، كما لو أن المرابع لم يعد موجودًا بالنسبة له، بدأ في جمع الملابس والبياضات القليلة الخاصّة به. كل شيء يمكن أن يوضع داخل بلوزته

الزرقاء التي ربط أكمامها بماسورة بندقيته، باستثناء زوج من الأحذية علقهما بخيط. ولما انتهى رفع قبعته وخرج من الباب.

كان الجوّ مشمساً في الخارج. مشى جان نيسمي ببطء، فالإرادة الجريئة التي تمتّع بها هذا الشابّ النحيل قد رفعت رأسه عالياً، ونظر نحو المنزل باحثاً عن روزيل من النوافذ، لكنّه لم يرها مطلقاً. عندها، وسط هذه الساحة الفارغة الكبيرة، هو الخادم المطرود الذي لم يكن معه سوى القليل من الوقت لمغادرة لا فرومنتيير، نادى:

- روزيل!

برز غطاء رأس حادّ من زاوية البوّابة. خرجت ماري روز من مأواها واندفعت ووجهها تغمره الدموع. لكنّها توقّفت على الفور تقريباً مرعوبةً من منظر والدها الذي ظهر للتو على عتبة الغرفة، وتملّكها الخوف لأنّ صرخةً علت من جانب الفناء نفسه، على بعد خمسين خطوة، وأجبرت جان نيسمي على الابتعاد:

- أيّها الملعون!

خرج شبحٌ رهيبٌ من الإسطبل. جاء العاجز مسرعاً، عاري الرأس، محمرّ العينين ومضطرباً من غضبه الواهن. شاداً ذراعيه على عكّازيه، مُرتجّاً جذعه الضخم باهتزازات ودمدمات حيوانٍ هائجٍ وفاتحاً فمه، كرّر صرخة الكراهية الرهيبة على مسمع الغريب، تلك الإهانة التي يرميها أطفال

الأهوار على ملعون بوكاج:

- أيّها الملعون! أيّها الملعون الحقير! أنقذ نفسك!

واقترب بسرعةٍ تنمّ عن عنف العاطفة وقوّة الرجل. كلّ الكراهية التي كانت في قلبه، كلّ الغيرة التي عذّبته وكلّ معاناة هذا الجهد، جعلت من هذا الوجه المتشنج مخيفًا وبارزاً إلى الأمام بفعل الترنّحات؛ والمخلوق القوي، الذي يفترضُ أن يكون هذا العاجز لولا مصيبة أمس، أعيد تكوينه في المخيّلة مسبّباً القشعريرة.

بدت روزيل خائفة على من تحبّ عندما رأت شقيقها بالقرب منه، فركضت نحو جان نيسمي ووضعت كلتا يديها على ذراعه وسحبته إلى الخلف نحو الطريق، وبسببها جان نسمي بدأ يتراجع ببطء، بينما ازداد المعوق غضباً وأهانه صارخاً:

- دع شقيقتي أيّها الملعون!

وعلا صوت المرابع من خلف الفناء:

- توقّف هنا يا ماتوران، وانت يا جان نسمي، أترك ابنتي!

واقترب متحدّثاً إليه، لكن دون تسرّع كرجلٍ لا يريد المساومة على كرامته، فيما توقّف العاجز ورمى عكّازتيه وارتمى منهكاً على الحصى. لكنّ جان نيسمي استمرّ بالتراجع واضعاً يده في يد روزيل، وسرعان ما أصبحا بين عمودي البوابة التي من ورائها تبدأ الطريق. وهناك انحنى الخادم نحو روزيل وقبّلها على خدّها قائلاً:

- وداعاً عزيزتي رزويل!

واندفعت نحو الفناء واضعةً يديها على صدغيها وباكيةً دون أن تلتفت إلى الوراء، ولما رآها تختفي وراء زاوية المنزل على جانب البيدر صرخ:

- سأرجع إليك يا ماتوران لومينو!

- جرّب ذلك! ردّ العاجز.

وشرع الخادم في صعود المسار الذي يمرّ أمام المزرعة، وكان يسير متألّماً وكأنّه منهك من التعب، ومتّشحاً بالبنيّ في ملابس الصيد التي يرتديها. وفي طرف بندقيّته لم يحمل سوى سترة وبلوزةٍ وثلاثة قمصانٍ، وكذلك مزمارين من خشب البقس لصيد طيور السمان التي تتصادم كالجوز، وأشياء خفيفةٍ شعر بثقلها. وبينما كان يربط ملابسه استولى عليه الخوف من عودته إلى حالة العامل المقاوم من أجل الخبز، وفكّر فعلاً في استقبال الأم التي ستراه قد أتى مصاباً بالذهول التام. وكلّما خطا خطوة يختطِف منه شيءٌ يحبّه، لأنّه عاش في لا فرومنتيير ثلاث سنوات. أثقِلت روحه من الذكريات، ومضى ببطءٍ، لا ينظر إلى شيءٍ ويرى كلّ شيء: الأشجار التي نظّفها وشذّبها بمنجله أو ضربها بسوطه، الأراضي التي حرثها وحصدها، الأراضي البور التي كان يعرف ما الذي ستزرعُ به في اليوم التالي.

وعندما بات خلف المزرعة، عند تحدّب الطريق حيث توجد مطحنتان كانتا ذات يومٍ أربع، تجرّأ على الالتفات ليتنهّد

قليلاً. حدّق في سهل الأهوار المغمور بالنور، حيث يوضع القصب المجفّف بفعل الخريف على شكل دائرةٍ ذهبيّةٍ حول المروج؛ وكذلك ببعض المزارع الصغيرة تمكّن من التعرّف على أشجار الحور التي تكلّلها، أيضاً بعض الجزر المأهولة وسط هذه الصحراء حيث ترك أصدقاء وساعات بهجةٍ يستذكرها المرء بحزن؛ وأجال نظره حول المنازل المتلاصقة في سالِرتِن والكنيسة التي تشرف عليها، أبرشيّة أيّام الأحد المنتهية؛ ومن ثمّ أراح روحه فوق لا فرومنتيير كطائرٍ يحلّق بأجنحته الكبيرة. ومن هذا العلو حيث كان موجوداً أمكنه رؤية أدقّ تفاصيل المزرعة: عدّ النوافذ واحدةً تلو الأخرى، عدّ الأبواب والمسارات الضيّقة، والأثلام حول الحقول حيث ظلّ طيلة عامين يغني خلال المساء عندما يعيد الثيران. وعندما رأى من بعيدٍ البستان المسوّر، العريض كقرن بازلاء، سرعان ما أشاح ناظريه وابتعد، وضربت قدمه في الطريق حيواناً كثيف الوبر مضطجعاً بصمت.

- أهذا أنت يا باروج؟ قال الخادم. آه يا كلبي المسكين، لا يمكنك اللحاق بي إلى حيث سأذهب.

وبينما كان يمشي، مرّر يده فوق جبين الكلب وبين أذنيه، حيث كانت روزيل تحبّ مداعبته، وبعد عشرين خطوةٍ قال مرّةً أخرى:

- ينبغي أن تذهب يا باروج، فأنا لم أعد معك!

ومرّةً أخرى، قام باروج بهرولةٍ صغيرةٍ حول الخادم، ولكنه

في الحقيقة توقّف وعاد وحيداً عندما وصل إلى آخر سياجٍ للحقل.

III

عند الشقيقتين ميشلون

كانت الساعة تشير إلى الواحدة تقريباً، والهواء الساخن الممزوج بالضباب يرتجف فوق المروج، وروزيل تسير بسرعة. ها هي القناة الكبرى ملتحمة كمرآة، وها هو الجسر الملقى فوق الترعة والطريق المنعطفة، وعلى كلا الجانبين تبدو منازل القرية والبساتين خلفها، المبيضّةُ بفعل الكلس، متّجهة نحو الأهوار. ما زالت روزيل مسرعةً في خطواتها، إذ خشيت أن تُنادى وتُجبر على التوقّف لأنّ عائلة لومينو معروفة لدى كلّ قاطن في البلد، لكنّ الأشخاص الطيّبين يأخذون قيلولةً أو يلوّحون من مسافةٍ بعيدةٍ دون الخروج من الظل: « – مرحباً أيّتها الصغيرة! كيف حالك! – أنا في عجلةٍ من أمري، هناك أيّامٌ كهذه! – أظنّ ذلك!» هذا ما يقولونه. وظلّت ماضيةً حتى وصلت إلى الساحة الطويلة التي تضيق حتى تنتهي بالكنيسة، وفي هذه اللحظة لا تنظرُ سوى إلى المسكن الحقير الموجود في أضيق مكان هناك أمام الباب الجانبي الذي يدخل المؤمنون عبره أيّام الآحاد. بدا مسكناً صغيراً جدّاً: نافذةٌ مطلّةٌ على الساحة، وأخرى على زقاقٍ منحدر، وسلّمٌ خارجيّ بزاويةٍ من ثلاث درجات؛ كما أنّه قديمٌ جدّاً ومبنيّ تحت تحليق الأجراس، تحت ظلّ الكنيسة، وأقرب ما يمكن إلى الله. لطالما عاشت الشقيقتان ميشلون هنا، وتخيّلتهما روزيل من وراء الجدران، وعبّرَ بصيصُ أملٍ ونصف ابتسامةٍ

عينيها الحزينة. تسلّقت الدرجات الثلاث وتوقّفت لتسترد أنفاسها مرّةً أخرى.

لم تنهضا عندما دخلت ماري روز، لكنّهما قالتا معاً، أديلايد القريبة من النافذة وفيرونيكا أبعد قليلاً:

- أهذا أنت يا لومينو الصغيرة! طاب نهارك يا حلوتي!

- اجلسي! تبدين وكأنّك تلهثين! قالت أديلايد.

- أولست مريضة على أقل تقدير؟ قال فيرونيكا. أعيناك كبيرتان كما لو أنّك مصابة بالحمّى؟

- شكراً لكُما يا خالاتي. أجابتهما ماري روز التي تناديهما بلقب «خالاتي» بسبب علاقةٍ عائليّةٍ صعبة التحديد، وبسبب لطفهما قبل كلّ شيء. صحيح، أنا مرهقةٌ لأنّني مشيتُ بسرعة، فقد جئت من أجل المال.

تبادلت الشقيقتان نظرةً جانبيّةً وضحكتا بالفعل على فكرة حفل الزفاف القادم، وسألتها الكبرى أديلايد وهي تمرّر إبرتها على شفتيها كما لو أنّها تحاول إبهاجهما:

- هل تزوّجت إذاً؟

- أوه! ليس صحيحاً! أجابت ماري روز. سأتزوّج مثلكما يا خالاتي، مع مقعدي في الكنيسة ومسبحتي الورديّة. أما المال فهو لأجل والدي الذي لا يملك ما يكفي لدفع الإيجار، والمدّة قد طالت.

وبما أنّها لم تكن تنظرُ أثناء حديثها إلى عيون صديقتيها

القديمتين، بل إلى الغرفة المظلمة في مكانٍ ما باتجاه السريرين الذين يتبعان بعضهما البعض على طول الجدار، أومأت الشقيقتان ميشلون لإيصال انطباعهما بأنّ هناك شيئاً جديداً في حياة روزيل. غير أنّهما كانتا أكثر تأدباً من فضولهما، فقد احتفظتا بأفكارهما لساعاتٍ طويلةٍ من الدردشة معاً، وواصلت أديلايد حديثها بمرحٍ واضعةً عباءةً نصف المفتوحة، ضامّةً يديها المعقودتين ذات اللون الأبيض العظميّ وثانيةً خصرها المنبسط:

- انظري يا جميلتي، لقد وصلت في الوقت المناسب! إنّني اقترضتُ أموالك لإلزام ابن أخي الذي يملك أفراساً في الأهوار وأزواجاً جميلة كما تعلمين. إنّ فرنسيس العظيم ذكيّ جدّاً بالنسبة لكثيرين، ألم يبع بالأمس على وجه التحديد، مقابل ثمنٍ باهظٍ لدرجة أنه لا يريد قول ذلك، مهرته الرمادية المرققة التي كانت تجري كطائر الدحروج المجنون، والتي يعتز بها جميع التجار وجميع الغرباء الملاعين أثناء مرورهم في المراعي! لن يشعر بالحرج من ردّ جزءٍ كبيرٍ من المبلغ كما تفهمين. كم تريدين؟

- مئة وعشرين فرنكاً ذهبيّاً.

- ستكون لديك، أأنت في عجلةٍ من أمرك؟

- نعم خالة أديلايد، فقد وعدتهم ليوم غد.

- حسناً، هل تستطيعين الذهاب إلى ابن اخي يا ابنتي فيرونيكا؟ بإمكان العباءة أن تنتظر ساعة.

وعلى الفور نهضت الصغرى، وقد بدت قصيرةً جداً في وقفتها لدرجة أنّ طولها لم يتجاوز رأس ماري روز التي كانت جالسة. وبلمح البصر نفضت مئزرها الأسود، الذي كانت بعض أجزاء الخيط معلّقة به، وقبّلت ابنة أختها على خدّيها قائلة:

- إلى اللقاء يا روزيل، فقط تعالي في الغد إلى هنا، وأموالك ستكون معنا.

وفي سكون القرية الهادئة سُمِع نزولُ فيرونيكا الزلق في الزقاق.

لم تكد تختفي حتى اقتربت أديلايد من ماري روز، وفيما كانت مركّزةً عينيها الليّنتين والصافيتين نحوها، على الرغم من أنّ جفونها ترفرف بقلق في هذه اللحظة، سألتها بحيويّة:

- هل تعانين من شجنٍ ما يا صغيرتي؟ هل تبكين؟ أووه أجل! ما زلت تبكين!

وأمسكت يدها المجعّدة بيد الصبيّة النضرة.

- ما الأمر حبيبتي روزيل؟ أخبريني كأنّك تخبرين والدتك: لديّ قلبها من أجلك!

كفكفت ماري روز دموعها، فهي لا تريد البكاء لأنّها قادرةٌ على الكلام، وقالت وهي ترتعش من اللمسة التي أمسكت يدها وتلمع عيناها الثابتتان في وجهها وكأنّها تخاطب جميع الأعداء الذين صمتت أمامهم:

- لقد طردوا جان نيسمي!

- من يا عزيزتي، هو؟ إنّه عاملٌ كفءٌ، كيف فعلوا ذلك؟

- لأنّني أحبّه خالة ميشلون! طردوه هذا الصباح. يعتقدون أنّ الأمر سينتهي بيننا لأنّني لن أراه مرّةً أخرى. آه! لكن لا! إذاً ألا يعرفون الفتيات هنا؟

- أحسنت القول أيّتها الماريشيّة. قالت ميشلون.

- سأهبهم كلّ أموالي، أجل سأفعل ذلك، لكن محبتي فحيث وضعتها سأتركها، إنّها قسمٌ كمعموديّتي. لستُ خائفةً من البؤس، ولا أخشى أن ينساني، فقد وعد بالعودة، ويوم عودته سأقابله ولن يمنعني أحد. عندما يعود إلى الأهوار بزورقه الشراعي عابراً الثلج والجليد، وتكون فتيات القرية جميعهنّ ليضحكن عليّ، وأبي وإخوتي ليدافعوا عنّي، سأمضي.

وأثناء وقوفها غاضبةً ألقت بحبّها وحقدها على جدران هذه الغرفة التي لم تعتد على سماع الأصوات العالية، وتحدّثت عن نفسها، عن نفسها وحدها، لأنّها كانت تتألّم. نظرت أمامها على نحوٍ مبهمٍ دون أن تكلّف نفسها عناء النظر إلى ميشلون، ومع ذلك فإنّ هذه الأخيرة نهضت واستمعت، وجسدها مضطرب ومستثار، متأثّرة بكلمات روزيل ومبتعدةً خارج دائرة أفكارها المقيّدة، حتى أنّ كلّ السلام قد اختفى من وجهها، وأنّها وجدت نفسها امرأةً في ظلّ فتاةٍ كبيرةٍ ظلمتها الحياة، امرأة تتذكّر وتجدّد شبابها لتتألّم رفقة الأخرى.

- أنت على حقّ يا صغيرتي، وأنا أوافقك الرأي. أحبيه

بقوّة!

وعند هذه الكلمة نظرت روزيل إلى ميشلون، وأوحي إليها أنّها قبالة امرأةٍ لا تعرفها. بدت هذه النظرة ملتهبة، وامتدّت الأذرع الضعيفة المتيبّسة جرّاء الروماتيزم نحو روزيل وهي ترتجف جرّاء الانفعال.

- أجل، أحبيه بقوّة! فسعادتك معه. دعي الوقت يأخذ مجراه لكن لا تستسلمي يا روزيل، لأنّني أعرف أخرياتٍ رفضن الزواج في شبابهنّ لإرضاء آبائهم، فواجهن الكثير من المشاكل بعد ذلك لوأد قلوبهن! لا تعيشي لوحدك فذلك أكثر شرّاً من الموت، أنا أعرف نيسمي، وأنتِ وإياه ريفيّان حقيقيّان بحيث أن الريف لم يعد لديه العديد من طينتكما. إن كان بمقدور الخالة العجوز أديلايد أن تخدمك، وتدافع عنك وتعطيك ما لديها لتثبتي نفسك، فتعالي وجديني يا ابنتي، تعالي!

وحينها قبّلت روزيل وانحنت على صدارها الأسود، واستسلمت روزيل للبكاء على كتفِ ميشلون بعد أن قالت كلّ شيء.

للحظةٍ بدت الغرفة صامتةً كالقرية بأكملها تحت هذه الحرارة الشديدة، ومن بعدها أفلتت ميشلون نفسها بلطفٍ من حضن الصغيرة واقتربت إلى نافذة لكن دون أن تنظر إلى خارجها. ارتسمت زاوية من الأهوار داخل إطارٍ باتجاه الغرب، بين سقفين متجاورين، زاويةٌ انحدرت خطوطها في العشب

الأحمر إلى ما لا نهاية.

- أوليس ماتوران الذي شجبك؟ سألت بصوتٍ خفيض.

- أجل، فقد كان يتجسّس عليّ طيلة اليوم.

- إنّه يغار كما ترين! إنّه غاضبٌ منك.

- ممّ يغار هذا الشقي؟

- لأنّك شابّة يا ابنتي المسكينة، إنّه يشعر بالغيرة من كلّ الذين بإمكانهم أخذ مكانه الصحيح، فرانسوا، أندريه وأنتِ، ويمسي كشخصٍ لعينٍ عندما يسمع أنّ شخصاً آخر سيستلم دفّة مزرعة والده. أتريدينني أن أخبرك بكلّ شيء؟

ورفعت يدها الهزيلة مشيرة إلى أبعاد الأهوار حيث تنتصب أشجار الحور صغيرةً كأغصان الشوفان، وتلطّخ السماء في بعض الأماكن.

- حسناً، ما زال يفكّر في فتاة لا سولييرا!

- أخي المسكين! قالت روزيل وهي تهزّ رأسها. بحال كان ما زال يفكّر بها، فهي لا تعيره أيّ اهتمام!

- كم أنت بريئة! أعرف ما أعرفه. أجابت المرأة العجوز خافضةً رأسها. احذري من ماتوران، فقد تشرّب الكثير من الحبّ لئلا ينسى، واحذري من فليسيتيه غوفري، فهي مغتاظة لكونها مرابعةً ولم يعد الراغبون بالزواج منها يأتون.

وكانت روزيل على وشك أن ترد، غير أنّ ميشلون أشارت

إليها بالتزام الصمت لأنّها سمعت وقع خطى في الزقاق. وبسرعةٍ مسحت عينيها وجلست مرّةً أخرى، والتقطت العباءة كفتاةٍ صغيرةٍ ألقتها أمّها بالخطأ. ونقرت كعوب أحذيةٍ عند سفح الحائط وتخطّت السلّم، ومن ثمّ استدارت نحو أسفل المكان.

لم تكن فيرونيكا.

جفلت ماري روز، وركّزت نظرها على صديقتها الوحيدة، العجوز والمنهكة والخائفة، إلا أنّ قلبها ما زال شابّاً. لم تعد تفكر فيما تريد الإجابة عليه، فقالت ببساطة:

- إلى اللقاء خالتي ميشلون، بحال احتجتْ مساعدةً فأنا الآن أعرف أين أذهب.

- إلى اللقاء يا صغيرتي! احذري من ماتوران، واحذري من تلك الموجودة في الأسفل.

تحدّثتا مع بعضهما البعض فقط من خلال عيونهما التي لم تترك بعضها البعض. كانت روزيل تتراجع إلى الوراء، وسرعان ما انفتح الباب وسقط المزلاج مرة أخرى: كل ما تبقى في الغرفة كان امرأة عجوز، منحنية بشدّة، تحاول الخياطة في الملاءة السوداء ولم يعد بإمكانها رؤية إبرتها.

IV

أوّل حرثٍ في سبتمبر

بدا مرابع لا فرومنتيير شبه مبتهج، فظنّ الأبناء أنّه يفكّر في ذريّو الذي بات يردّد اسمه أكثر من عشرة مرّاتٍ في اليوم، لكن وحده الحرث الأول في الموسم هو ما أسعده.

بعد ربع ساعة ربط الأب حول الجسد الحزام المربوط بالصندوق الخشبي الضيق حيث كان العاجز جالساً، وكما يُسحبُ الزورق سحبَ العربة. سارت الثيران في المقدّمة بقيادة فرانسوا، وصعدت الطريق حيث ما زالت خطى جان نيسمي معلّمةً في الغبار. أربعة ثيرانٍ رائعةٍ تسبقها فرسٌ رماديّة: نوبليه، كافالييه، بالادين وماتِلو، جميعها بنفس الثوب الأسمر، بقرونٍ متوهّجةٍ وظهرٍ عالٍ ومشيةٍ بطيئةٍ ونضرة. وساحبة للمحراث المرفوعة سكّته دون صعوبة، صعدت المنحدر، وعندما أغويت أفواهها المترتّلة ببرعم عليقٍ متدلّ عبر الطريق، أبطأت جهودها مع بعضها، ولامست السلسلة الحديديّة، التي تربط الزوج الأوّل بالمحور، الأرض ورنّت. ذهب فرانسوا، على طول خواصرها، مكتئباً، إذ شغلت باله فكرةٌ لم تكن متعلّقة بالعمل اليومي إطلاقاً.

ذانك اللذان جاءا من ورائه، المرابع والعاجز، لم ينبسا ببنت شفة، لكنّ عقلهما ظلّ حبيس الأفق الذي عبراه. عاينا بنفس الحب الهادئ الخنادق والأسيجة وأركان الحقل التي شاهدوها خلال مسيرهما، وتأمّلا في نفس الأشياء القديمة

والبسيطة، والتي كان التأمّل فيها إشارة إلى المهنة وعلامة على الحالة المجيدة لأولئك الذين يعيدون الحياة إلى العالم. وعندما وصلا إلى أعلى التل، ومن كايّتري، ساعد الأبُ ماتوران على الخروج من العربة، وجلس العاجز عند سفح شجرة غبيراء تلقي أغصانُها ظلالاً لطيفة على الجسر. قبالتهم انحدرت الأرض البور الممتلئة بالأعشاب الجافّة والسراخس في منحنى منتظم، وحدّدت أربعة أسيجةٍ شكلها المستطيل وأغلقته، وفوق الجزء السفلي من الممكن رؤية أعماق الأهوار كسهلٍ أزرق دون تقسيمات. قام الأب بنزع الوتد الذي يحمل سكّة المحراث، ورتّب المحراث بنفسه بالقرب من السياج على اليسار ووضعه في مكانٍ جيد.

- ابقَ هنا في الدفء! قال لماتوران. وأنت يا فرانسوا، قُدِ الثيران إلى الأمام. إنّه يوم حرثٍ جميل. نوبليه وكافالييه وبالادين وماتلو! هيا!

وانحنى ظهر الفرس جرّاء ضربة سوط، وخفضت الثيران الأربعة قرونها ومدّت عراقيبها، وانغمست السكّة بضوضاء ناشزةٍ حادّة، وانفتحت الأرض بنيّةً مشكّلةً ساتراً ترابياً عالياً انكسر أثناء صعود المحراث وانهار على نفسه كالمياه التي يقسمها قوس السفينة. سارت البهائم الجميلة باستقامةٍ وهدوء، وتحت جلدها المتجعّد بارتعاشٍ منتظمٍ تحركت العضلات دون عملٍ ظاهرٍ أكثر مما لو كانت قد سحبت عربةً فارغةً على طريقٍ مستوية. وكانت الحشائش المقتلعة مستلقية: البرسيم، الشوفان البري، موز الجنّة، الإفليوم،

المرقئة، قرن الغزال بزهوره الصفراء المتمازجة بقرونه البنيّة، السراخس المتكئة على النخلات المنحنية كشجرات البلوط الصغيرة المغتمّة. ومن الأرض الباردة خرج بخارٌ تفاجأ بحرارة النهار، وتصاعد الغبار في الأمام تحت أقدام الحيوانات. تقدّمت العربة المقرونة بالمحراث في هالةٍ حمراء يعبرها الذباب، وبدا ماتوران الجالس في ظلّ شجرة الغبيراء يراقب حاسداً الأب والأخ والفرس الرمادية والثيران الأربعة التي بدأت تصغر أضلاعها عند المنحدر.

- فرانسوا! نادى المرابع مسروراً لشعوره بذراعي المحراث التي تضرب بين يديه. انتبه لنوبليه المتراخي! انكز ماتلوا! الفرس تنحرف نحو اليسار! انتبه يا بني، تبدو ساهياً!

الحقيقة أنّ الابن الأصغر لا يستسيغ قيادة عربة الحرث، فقد اعتقد أنّ عليه التكلّم، وأنّ الخوف من البدء بالعمل جعل جبينه منخفضاً. استدارت الثيران في أسفل الحقل وعاودت الصعود، ورسمت ثلماً ثانياً بجوار الأوّل، وبدأت قرونها، مهماز فرانسوا، بالظهور مرّةً أخرى بالقرب من العشب الذي تأمّله ماتوران. هذا الأخير بدأ بتنغيم وغناء الترانيم البطيئة بملء صوته، مرحّباً بعودة العربة، ترانيم تختلف جميعها وتنتهي كما يحلو له. هذه النغمات تطايرت قويّةً ترافقها بهرجاث فنّ قديمٍ قِدم الحراثة نفسها، وواكبت الحيوانات التي تعرف إيقاعها، ورافقت شكوى العجلات على المحاور، وذهبت في المسافة فوق الأسيجة لتعلّم أتباع الرعيّة أولئك العاملين خارج المكان أنّ المحراث يعملُ أخيراً على حرث البور في

كايّتري آل لومينو. كما أنّها أدخلت البهجة في قلب المرابع، غير أنّ فرانسوا ظلّ متجهّماً.

وعندما وصلت العربة إلى ظلّ شجرة الغبيراء قال ماتوران:

- يجدر بك يا أبي أن تعاود زرع كرمنا الذي سيذبل، فبمجرّد عودة دريو إلى هنا ينبغي أن نبدأ بقطافه. ما رأيك؟

طبعاً كان ذلك لأن عقله ما زال يحلم بمستقبل لا فرومنتيير.

أوقف المرابع الثيران ورفع قبّعته، فبدا شعره رماديّاً مدخّناً بكامله، وابتسم بقناعة.

- لديك أفكار جميلة يا ماتوران، بحال نمت الحبوب بشكلٍ جيّدٍ في كايّتري، كما يؤمن لومينو، فسأشتري غرساتٍ للكرم، فلديّ أملٌ فيما حرثناه اليوم... هيّا يا صغيري، رتّب العربة، اعتن بالفرس الحرانة ولاطفها قليلاً، وابق أمامها كي تمشي بأدب.

وانطلقت العربة مرّةً أخرى، ولفّ نورٌ متوقّدٌ ومبرقعٌ البهائم والأشخاص، فيما كانت كل الخواصر تتصادم. كما نخل الذباب في الهواء، وجثمت الحمامة المحمّلة مناقيرها بالزنابق فوق أشجار الدردار هاربةً من القش المشتعل.

وبما أنّ العاجز لم يعد يغني، فقد قال المرابع حين بلغوا قرابة منتصف الحقل:

- الآن دورك في الغناء يا فرانسوا! غنّ يا بني، سيبتهج قلبك!

واصل الشاب مسيره عشرات الخطوات ومن ثم شرع بالغناء: «أوه! أوه! الخدم، أوه! أوه! أوه!» فيما تسبّب صوته الأعلى من صوت ماتوران بثقب آذان الثيران وإصابتها بالارتجاف، لكنّه توقّف فجأةً بسبب الخوف الذي لم يستطع السيطرة عليه. تيبّس، ورفع ذقنه نحو الأهوار وحاول الغناء مرّةً أخرى، ومن ثمّ تدفّقت ثلاث نغمات. بعد ذلك أنهى النحيب الأغنية، وعاد الرجل إلى السير في صمتٍ محمرّاً من الخجل، وتحول وجهه نحو البور أمام المزارع العجوز الذي كان ينظر إليه من فوق ردف الثيران.

كلا الجانبين لم ينبسا ببنت شفة طالما أن الأب لم ينتهِ من حرث الثلم، من ثمّ سأل توسان لومينو في أسفل الحقل مضطرباً حتى أعماق روحه:

- ثمّة أمرٌ جديدٌ لديك يا فرانسوا، ما هو؟

وكانت تفصل بينهما ثلاث خطوات، الأب بالقرب من السياج، والابن على الجانب الآخر من العربة على رأس الثورين الأولين.

- نعم هناك يا أبي، ألا وهو أنني سأرحل!

- ما الذي قلته يا فرانسوا؟ حتماً صفعك حرّ النهار في عقلك. أأنت مريض؟

لكنّه، ومن خلال تعابير عيني ابنه، أدرك أنّه كان مخطئاً، وأنّ هناك ما هو أكبر من القلق: إنّها محنة قرر فرانسوا التحدّث عنها. مرّت يدٌ على العمود الفقري لنوبليه، كما لو

أنّها تتراجع، متوتّرةً ومحمومةً لدرجة أنّ أرجلَ الثور انثنت. وبنظرةٍ قاسيةٍ وصلفةٍ صرخ:

- لقد سئمت ذلك! انتهى كلّ شيء!

- سئمتَ من ماذا يا بني؟

- لم أعد أرغب في نبش الأرض، لم أعد أرغب في العناية بالبهائم، ولم أعد أرغب في إرهاق نفسي، وأنا في السابعة والعشرين من عمري، لكسب المال الذي يُدفَعُ للمزرعة: إليك ذلك! أريد أن أكون سيّد نفسي، وأن أكسب المال لأجل نفسي. لقد قبلوني للعمل على السكك الحديديّة، وسأبدأ من الغد. من الغد، هل تسمع؟

ورفع صوته في حالةٍ من الحنق:

- لقد تمّ تعييني. لا يعني أنّه سيتمّ ذلك، بل تمّ. سأصطحب معي إليونور التي ستقوم بأعمال منزلي، ستأتي معي إلى لاروش، فهي أيضاً قد سئمت، ووجدتْ مكاناً جيّداً تكسِبُ فيه أكثر مما تكسبه عندك، وعلى الأقل بإمكانها أن تتزوّج... لسنا أبناءً سيّئين بسبب ذلك، لا تقل هذا! ولا ترسم الصورة التي تودّ رسمها!... قضينا وقتنا معك يا أبي منتظرين عودة أنديه! والآن بإمكانه مساعدتك حين يعود: حان دوره!

ظلّ المرابع مندهشاً جرّاء الصدمة وشحُب بشدّة، مصّراً أسنانه وممسكاً محراثه بذراعٍ واحدة، ظل عاجزًا عن الكلام وعيناه مثبتتان على فرانسوا، كما لو فقد عقله، وتسلّلت الأفكار وآلامها ببطءٍ إلى روحه.

- ما تقوله لا ينبغي أن يحدث يا فرانسوا، فإليونور لم تشك من عملها قط.

- آه! حسناً إذاً، لم تشك إليك!

- أنت بالذات قدّمت لك المساعدات بشكلٍ جيّد، وإن وبّختك أحياناً لعدم مبالاتك فذلك لأنّ السنوات صعبة على الجميع، لكن وبما أنّني سأستأجر خادماً، وبما أن دريو سيصل في غضون أسبوعين، فإنّ ذلك سيصبح هناك أربعة رجالٍ بالإضافة إليّ ما يزالون يستحقّون القليل. لن تغادر يا فرانسوا، أليس كذلك؟

- بلى!

- أين سيكون حالك أفضل مما هو معنا؟ هل تفتقد للخبز؟

- أبداً.

- هل رفضت لك بعض الملابس، أم المال فقط لأجل تبغك؟

- أبداً.

- إنّه قلبك الذي تغيّر منذ فترة تجنّدك يا فرانسوا.

- ربّما.

- لكنّك لن تذهب أليس كذلك؟ قل.

فتّش الابن في بطّانيّة سترته وأخرج منها رسالة وقال:

- هذا لظهيرة الغد، فإن كنت لا تصدّقني واصل القراءة!

ومن فوق ردف الثور مدّ الأب ذراعه، لكنّه بدا يرتجف بشدّةٍ لدرجة أنّه بالكاد استطاع تلمّس الرسالة. ومن ثمّ لما صارت بين يديه، وبدلاً من أن يفتحها، قام في نوبةِ تمرّدٍ مفاجئةٍ بتكويرها وثنيها وتمزيقها إلى فتات، ورماها تحت حذائه ودهسها فوق الأرض الطريّة، وصرخ:

- خذ ذلك! لم يعد هناك من رسالة! هل ستذهب أيضاً؟

- لن يغيّر هذا شيئاً! أجاب فرانسوا.

وأراد أن يرحل أمام الأب ويمضي بعيداً، لكنّ يداً قويّةً أمسكت به من كتفيه، وصدر صوتٌ آمر:

- قف هنا!

ولم يكن بوسع الابن سوى التوقّف.

- من وظّفك يا فرانسوا؟

- مدراء العمل.

- لا، من نصحك؟ حتماً لن تفعل ذلك بنفسك، وهناك أحدٌ ما ساعدك. من يكون؟

تردّد الشاب للحظة قبل أن يتلجلج بكلامه عندما شعر أنّه سجين:

- السيّد مِفراي.

وأجبره الأب على الركض فوق العشب بدفعةٍ منه.

- أنقذ نفسك الآن! أحضر لاروس إلى العربة وعلى الفور. سأذهب حالاً إلى السيّد مِفراي.

كان فرانسوا أوّل الواصلين إلى ساحة شالان بالقرب من هال نوف، وربط الفرس بحلقةٍ مغلقةٍ في أحد الأعمدة. ومن ثمّ تبعه الأب الذي استدار نحو أحد الشوارع باتجاه اليسار، وتوقّف أمام منزلٍ جديدٍ ضيّقٍ مبني من الحجر الجيري والطوب، وقد علّق أسفل الجرس لوحة من الحديد المسبوك كُتِب عليها: «جول مِفراي، مأمورٌ سابق، ومستشار البلدة».

وقرع المرابع الجرس بقوّة.

- هل سيّدك موجود؟ سأل الخادمة التي فتحت الباب.

نظرت الفتاة إلى هذا الفلاح الذي جاء لزيارة سيّدها بملابس العمل الملطّخة بالطين، والذي لم يكن في حالةٍ مزاجيّةٍ ملائمة بفعل نبرة صوته ولون عينيه، فأجابت:

- أعتقد أنّه موجود، ما الذي تريده منه؟

- قولي له إنّني توسّان لومينو، من لا فرومنتييز. دعيه يستعجل، فأنا في عجلةٍ من أمري.

ومندهشة بسبب ذلك، لم تجرؤ على السماح للومينو بالدخول إلى غرفة الطعام حيث يستقبل مِفراي ضيوفه عادةً، بل تركت المرابع وفرانسوا في الممرّ المفروش بالورق الرمادي، والذي في نهايته يستدير السلّم. وعند انسحابها، لم تنظر إلى فرانسوا المختبئ في الخلف خجلاً، بل فقط إلى

هذا العجوز الضخم الذي كاد كتفاه يلامسان الجدارين، والذي وقف منتصباً، والقبّعة فوق رأسه، أسفل الفانوس الزجاجيّ الباهت الذي لا يُضاء أبداً.

بعد لحظاتٍ فُتِحت بوّابة الحديقة، واقترب رجلٌ طويلٌ وسمينٌ جدّاً، يرتدي ثوباً من الفلانيل الأبيض وقبّعة من القماش ذاته، وفي وجهه المحلوق أومضت عيناه الصغيرتان منزعجتين من خفوت الضوء المفاجئ ربّما. إنّه السيّد مِفراي، ناخب شالان الأكبر، نصف برجوازيّ طموحٍ تحركه كراهية سرية ضد الفلاحين الذين خرج من صلبهم وعاش بجانبهم في قرية، ولكنه مع ذلك لم يكن يفهم سوى عيوبهم التي كان يستغلّها. وحذراً من الكيفيّة التي قدّم بها لومينو نفسه، وخائفاً من مشاهد الانفعال، توقّف عند الدرجة الأولى من السلّم مسنداً مرفقه على الدرابزين وواضعاً ثلاثة أصابعٍ على قبّعته، وقال بتهاونٍ:

- كان من المفروضِ أن يُسمح لك بالدخول أيها المرابع، ولكن على أي حال، ونظرًا لأنك في عجلة من أمرك على ما يبدو، يمكننا الدردشة هنا. لقد قدّمتْ معروفاً لابنك، فهل هذا ما أتيت من أجله؟

- بالضبط. قال لومينو.

- هل ما زال بإمكاني أن أقدّم ما هو مفيدٌ لكم؟

- أريد أن يبقى ابني هنا يا سيّد مِفراي.

- كيف؟ ستبقيه؟

- تماماً، وذلك بتراجعك عمّا فعلته.

- لكنّ هذا الأمر يعود إليه أيّها المرابع. هل تلقيت رسالة الدعوة الخاصّة بك يا فرانسوا؟

- أجل سيّدي.

- بحال لم ترد الذهاب إلى وظيفتك، فلا يوجدُ نقصٌ في مرشّحين سيحلّون محلّك كما تعلم يا صديقي، ففي حوزتي عشر طلباتٍ أخرى لديّ سببٌ لدعمها أكثر مما اضطررت لدعمك، وذلك لأنّكم أنتم، عائلة لومينو، لستم معنا في الانتخابات. هل ستتنازل؟

- مطلقاً سيّدي.

- أنا من لا يريده أن يذهب. قاطع توسان لومينو الحوار. إنّني بحاجةٍ إليه في لا فرومنتيير.

- لكنّه بالغٌ أيّها المرابع!

- إنّه ابني سيّد مِفراي! وهو مدينٌ لي بعمله. ضع نفسك مكاني، أنا الرجلُ العجوز، كنتُ سأعتمد عليه وسأمنحه ملكيّتي الصغيرة كما منحها والدي لي، وها هو سيغادر وسيأخذ ابنتي معه. سأفقد ولدين، وهذا بفعل خطئك.

- آه المعذرة! لم أطلبه، فقد جاء بنفسه.

- لكن لولاك لما كان ليغادر، لا هو ولا إليونور، فقد كانا بحاجةٍ إلى بعض الدعم. هل تسمّي هذا العمل خدمةً يا سيّد

مِفراي؟ هل تعرف حتى ما الذي يناسبُ فرانسوا؟ هل رأيته في منزلي لتظنّ أنّه غير سعيد؟ عليك إعادته لي سيّد مِفراي!

- رتّب أمورك مع ابنك، فالأمر لم يعد يهمّني.

- ألن تمضي للتحدّث مع أولئك الذين وظّفوا ابني كي يفسخوا الصفقة؟

وخطا توسان لومينيو خطوة إلى الأمام، ورفع صوته ومد ذراعه إلى الأمام بشكل أفضل ليشير إلى الرجل:

- إذن فقد آذيت ابني في يومٍ واحدٍ أكثر ممّا تأذى في حياته كلّها.

واحمرّت سحنة مِفراي الثقيلة وصرخ:

- امضِ أيّها المتمرّد العجوز! خذ ابنك! كن ما تريد. آه من هؤلاء الفلاحين! نعتني بهم، وهكذا يشكروننا.

من الواضح أنّ المزارع لم ينصت لذلك، فقد بقي بلا حراك، لكن بدت عيناه مضطرمتين بوهجٍ ناري. ومن أعماق قلبه المتألم، ومن أعماق سلالته المتربّية على التقوى منذ قرون، صعدت عبارات الإيمان على شفتيه قائلاً:

- ستستجيب لأجلهم.

- لأجل ماذا؟

- حيث سيذهبان سيضيعان سيّد مِفراي، ستستجيب لخلاصهم الأبدي!

كما لو كان مندهشاً من هذه العبارة التي لم يسبق له السماع بها، لم يردّ مستشار البلدة. استغرق الأمر وقتًا طويلاً لكي يفهم فكرةً مختلفةً تمامًا عن تلك التي ما زالت تشغله. ثم ألقى نظرة ازدراءٍ على الفلاح الكبير الواقف على بعد قدمين، وأدار كعبيه عائداً إلى بوابة الحديقة مغمغماً:

- اذهب أيّها الهمجي!

نزل توسان لومينو وابنه إلى الشارع، سارا جنبًا لجنب دون التحدث مع بعضهما البعض باتجاه العربة التي تركوها في الميدان. هناك حل الأب الفرس ووقف على الدرج قائلاً:

- اصعد ودعنا نذهب إلى المنزل يا فرانسوا!

لكنّ الشاب تراجع قائلاً:

- لا، قُضي الأمر ولن تقدر على تغيير ما لدي. علاوةً على ذلك فقد أخطرت إليونور التي ينبغي أن تكون قد غادرت لا فرومنتيير بالفعل. لن تجدها مرّةً أخرى.

وخلع قبّعته مودّعاً، ونظر محرجاً إلى العجوز الذي بدا على وشك الإغماء، والذي كان متّكئاً على نقالةٍ وعيناه نصف مغمضتين.

لم يكن هناك من أحدٍ تحت سماء هال، فقط بضعة نساءٍ في المحلات التجاريّة شاهدن الرجلين بشكلٍ عرضي.

وبعد برهةٍ اقترب فرانسوا قليلاً، ومدّ يده لمصافحة والده للمرّة الأخيرة على ما يبدو، لكن الأخير ما إن رآه حتى استعاد

حيويّته، ومنعه من الاقتراب بإيماءةٍ منه، ثمّ قفز إلى العربة وجلد لاروس التي شرعت بالعدو.

V

نداءٌ إلى السيّد

وقع الفراق. وفي اللحظة التي مضى فيها المرابع على أمل استعادة أبنائه مرّةً أخرى، سرعان ما غادرت إليونور ملجأ المخزن حيث كانت مختبئة، وذلك على الرغم من توسلات ماري روز وماتوران، فقد جمعت، أثناء هرعها من غرفةٍ إلى أخرى، الملابس القليلة وبعض البياضات والأشياء التي تخصّها. وعلى كلّ صلوات روزيل التي تبعتها وتوسلتها للبقاء، وعلى الأسئلة الأقل تأثّراً من ماتوران، كانت تجيب:

- فرانسوا من أراد ذلك يا أصدقائي! لا أعرف ما إذا كنت سأغدو سعيدةً، لكن فات الأوان الآن، فقد وعدته.

وبدت خائفةً جداً من رؤية عودة والدها لدرجةٍ جعلتها كالمجنونة في تسرّعها. وخلال وقتٍ قصيرٍ أكملت حقيبتها وغادرت لا فرومنتيير، ووصلت إلى الممرّ الغائر حيث كانت تنتظر، مستكينةً خلف الأسيجة، مرور القطار البخاري الآتي من لا فرومنتيير والمؤدي إلى شالان. كان عليها إيجاد فرانسوا هناك.

حدث ذلك قبل عدّة ساعات.

في غضون ذلك عاد الأب على وقع عدو لاورس.

- إليونور؟ صرخ منادياً.

- لقد غادرت! أجاب ماتوران.

عندها، بحالة نصف غاضبٍ جراء الحزن ورامياً اللجام عن ظهر البهيمة المتعرّقة، سار المرابع نحو سالِرتِن دون أيّ شروحات. هل كان لديه أملٌ أخير أو فكرةٍ أخيرة؟ أم أخافه بيته المهجور؟

لم يكن قد عاد بعد، فيما كان الليل يهبط، والأرض تُغطّى بضبابٍ رطبٍ مغلّفٍ ورقيقٍ كالموت، والأخير ينسلّ حتى شقوق الأرض. داخل الغرفة الكائنة في لا فرومنتيير، أمام النار التي لم يكن يحرّكها أحد والقدر الذي بالكاد يغلي مصحوباً بخشخشة الأنين، كان الولدان المتبقّيان في المزرعة ساهرين، لكن يا لمدى الاختلاف! لم تستطع روزيل، المتوتّرة والمحترقة من الحمّى، أن تلتزم الصمت، أحياناً تقوم عن الكرسي وتشبك يديها وتهمهم: «يا إلهي! يا إلهي!» وأحياناً أخرى تذهب نحو الباب المفتوح ليلاً، وهناك تنحني مرتجفةً في الهواء المعتكر المظلّل.

- أنصت! قالت لماتوران.

أنصت العاجز وقال:

- إنّه صوت مالابري الذي يُرجع قطيعه.

- أنصت أيضاً!

جاءت عواءاتٌ خفيفة وبعيدة يحملها الصمت العظيم لتموت على الجدران.

- لا أكاد أتعرّف على صوت باروج. أجاب ماتوران.

وكل ربع ساعةٍ تُسمع خطوة، صرخة، حركة عربة وتضعهما في حالة تأهّب. ما الذي ينتظرانه؟ الأب الذي لم يعد بعد. لكن روزيل الأصغر سناً والأكثر إيماناً بالحياة تنتظر أيضاً ظهور الآخرين، ظهور فرانسوا أو إليونور، ليس كليهما بل واحداً منهما فقط – هل ذلك بكثير؟ – من تاب وعاد. كم سيكون ذلك جميلاً! يا لها من بهجةٍ لروية أحدهما مرّةً أخرى! يبدو أن الآخر سيكون لديه الحق في المغادرة إذا عاد أحدهم لأخذ مكانه في المنزل. شعرت الفتاة بأنّها تعلو فوق نفسها جراء واجبٍ غامض، فهي المرأة الوحيدة والعاملة الوحيدة في فقر لا فرومنتييير.

كان ماتوران جالساً قبالة الموقد وقدماه ملفوفتان ببطانيّة، وظلّ منحنيًا، وجعل اللهب من لحيته حمراء بحيث بدت ذقنه مغروزة داخل صدره. لساعاتٍ لم يتحرّك، وتحدّث بأقلّ قدرٍ ممكن، وفي بعض الأحيان تنهمر الدموع على خدّيه، وفي أحيانٍ أخرى تندهش روزيل لرؤيته بتلك السحنة التي تمتصّها الأحلام وترسمُ ابتسامةً لا تستطيع فهمها.

أشارت الساعة إلى التاسعة.

- أخشى أن يصاب والدنا بمكروه يا ماتوران. قالت الفتاة الشابّة.

- ربّما يروي حزنه على مسمع كاهن البلدة أو العمدة.

- قلت هذا لنفسي، ومع ذلك أشعر بالخوف.

- هذا لأنك لست معتادة على الانتظار مثلي. ما الذي تنوين فعله؟

- سأذهب لملاقاته على طريق سالِرتِن.

- إن كنتِ تريدين فاذهبي.

ركضت روزيل على الفور نحو غرفتها وأخذت عباءتها الصوفيّة السوداء بفعل تشوّشها، وعندما عادت، متشبّهةً براهبةٍ صغيرة، وجدت ماتوران واقفاً، فقد خلع البطانيّة وترك العكازتين مرميّتين على الأرض، وبجهدٍ من إرادته نهض بشبه استقامةٍ، متّكئاً بإحدى يديه على المنضدة وبأخرى على الكرسي. نظر إلى شقيقته بحالةٍ من الكبرياء والمعاناة، فيما بدا العرق مطرّزاً لجبينه، وسألها:

- ما الذي ستفعلينه بحال لم يعد الأب يا روزيل؟

- أوه! لا تقل هكذا أشياء. قالت وقد أخفت عينيها بيدها. ولا تبقَ واقفاً على هذه الحال، فأنت تؤذيني.

- حسناً! قال ماتوران بجدّية. سأتولّى المسؤوليّة هنا. أشعرُ بالقوّة وبأنني سأشفى...

- اجلس! اجلس أرجوك، ستسقط أرضاً!

غير أنّه ظلّ واقفاً فيما كانت تتّجه نحو الباب، وما إن تجاوزت العتبة حتى سمعت سقوط هذه الكتلة البشريّة وأنينها، فاستدارت لترى أنّ العاجز قد جلس مرّةً أخرى على الكرسي، وقبض على صدره بكلتا يديه حيث كان القلب

ينبض بسرعةٍ كبيرةٍ بلا شك. عندئذ، بهدوءٍ وجزعٍ كعنزةٍ تنهض من السراخس، هرعت نحو الفناء ثمّ نحو الطريق.

شحّب الضباب وقلّت كثافته جرّاء ضوء القمر الطالع، بحيث بات من الممكن الرؤية عن بعد، وخلال ساعةٍ سيغدو الليل صافياً. ومتجنّبة الأسيجة، اتّبعت ماري روز منتصف المسار الضيّق المؤدّي إلى البستان المغلق، ومن ثمّ إلى حافّة المروج. بدت كأنّها على وشك الجري فقد كانت خائفة، ولم تبطئ في مشيها إلا عند حافّة الأهوار حيث اتسع المسار فجأةً كنهرٍ ساحليّ صغير، واختلط عشبُه بعشبٍ لا محدود. لذلك أنصتت مطمئنّةً إلى الشعور بالعزلة في الضوء. أين هو والدها؟ تأمّلت أن تسمع وقع خطى مسافر أو عواء الكلب باروج، لكن ما من شيء: في مشهد الضباب والحلم الذي يتشكل باستمرار ويتشوه أمامها، بين الأضواء الناعمة المتحركة، سمِع صوتٌ واحدٌ، ألا وهو تلاطم أمواج البحر البعيد قبالة الكثبان الرملية في فونديه.

انسلّت روزيل من خلال فتحةٍ إلى حقلٍ من القش، ومن هناك نحو شريطٍ ضيّقٍ من الأجمّة. ولمّا وطأت قدماها رمال ممرّ توقّفت خائفةً من هذه العزلة، وأيضاً لأن ثمّة احترام غريزي للمجال السياديّ قد استولى عليها، حيث نادراً ما تلجه عائلة لومينو حتى اليوم خشية استياء الماركيز. إنّها حدود الحديقة. وأمام روزيل، من جميع الجهات، ارتفعت المروج الجليلة المضاءة بضوء القمر، وحيث ينام الظلّ الأزرق للبساتين في الجزر المستديرة والمتناقصة والطريق تستدير

حولها. بدأت روزيل باتّباعها في الضوء حيناً وفي الغابة حيناً آخر، وقلبها خافقٌ وعيناها في حالة تأهّب. كانت تبحث عن آثار أقدامٍ في الرمال وتحاول أن تراها في دغشة الغابة. هل هذا هو الأب هناك، ذلك الشكل المظلم على طول الشتلات؟ إطلاقاً، فهو مجرّد وتد سياجٍ مكسوّ بشجيرات العليق. في كلّ مكانٍ ثمّة أشواك، جذور، أغصانٌ ميتةٌ وباقات من العشب على طول الممرات. كم نما الإهمال على مرّ السنين! لا مزيد من السادة، لا مزيد من الحياة، لا مزيد من شيء! ومع تقدّمها شعرت روزيل بألم رحيل فرانسوا وإليونور يشتد داخلها، فهما أيضاً لن يعودا إلى الريف بلا شك. انتابها القليل من الخوف والحزن بدرجةٍ أكبر... وفجأةً، عند منحنى دغلٍ من الأرز، برز القصر بمبناه الرئيسي العالي، وأبراجه المزوّاة وسقوفه المدبّبة حيث كانت دوارات الريح، المتصلّبة بفعل الصدأ، تمثّل حركة الرياح ذات يوم، فيما غطّت البومات جملوناته بتحليقها الصامت، وكانت نوافذه مغلقة، حتى أنّ مصاريع الطابق الأرضي مثبّتة بعوارض خشبيّةٍ متقاطعة.

رغم قلقها، لم تستطع الفتاة الشابّة سوى التفكير للحظةٍ في هذه الواجهة الكئيبة الرماديّة كالخراب والمخطّطة بأمطار الشتاء. وبينما كانت تقف هناك أمام الشرفة، في مساحةٍ مفتوحةٍ على مصراعيها حيث استدارت العربات ذات مرة، سمعت همهمة كلماتٍ بعيدة، ولم تتردد في التفكير: إنه الأب!

كان جالسًا على بعد حوالي مئة مترٍ من القصر، في منتصف الطريق حول منحنى دغل البتولا، على مقعدٍ تعرفه روزيل

جيدًا وكان يُعرف في الريف بمقعد الماركيز. رأته منحنياً إلى جزئين، ورأسه مستقر على قبضتيه ويحدق في القصر والبساتين غير المستوية التي كانت تجري على المنحدر نحو الأهوار. اقتربت منه روزيل متجنبةً الكتلة الصخرية ولم يرها. اقتربت وسمعت بكاءً من حزنه على ولديه، وبدأت في التمييز بين كلمتين يرددهما مثل لازمة: «سيدي الماركيز!» سيدي الماركيز!».

وبينما كانت مسرعةً على العشب الذي حملها بصمت، شعرت روزيل الصغيرة بالفكرة المروعة أنّ والدها قد أصيب بالجنون.

لا، لم يكن الأمر كذلك، فما أثار روحه هو الألم، والتعب من الشرود، والجوع الذي يشعر به. وبما أنّه لم يجد أيّ مساعدةٍ أو دعم من أحد فقد عاد إلى هنا بحالةٍ من اليأس الشديد، بشكلٍ غريزيّ واعتيادي، بالقرب من بوّابة القصر التي طرقها بإصرارٍ عدّة مرات. انتهى الوقت بالنسبة للمرابع، وناجى السيّد، الذي لم يعد هنا كي يسمع، بصوتٍ عالٍ: «سيّدي الماركيز! سيّدي الماركيز!».

خلعت الشابّة القبعة المغطية لرأسها، وقفت على بعد خطوتين من والدها، قالت بصوتٍ هادئ لئلا تخيفه:

- أبي! أنا روزيل... منذ ساعةٍ وأنا أبحث عنك، وقد تأخّر الوقت. تعال!

جفل من الصوت، ونظر إليها بعيونٍ لا تفكّر بشيءٍ وما تزال

غارقةً في الوهم وأجابها:

- الحقيقة أنّ الماركيز ليس هنا يا روزيل! بيتي ينهار، وهو لا يأتي ليحفظه لي. عليه أن يعود لأنّني أتألم، أليس كذلك؟

- تماماً يا أبي، لكنّه لا يعرف، فهو بعيد في باريس.

- لا يستطيع الآخرون في سالِرتِن أن يفعلوا شيئاً لأجلي يا روزيل، فهم فقراء مثلنا، ولا حيلة لهم سوى إدارتهم لممتلكاتهم الصغيرة. ذهبت إلى العمدة، إلى غيرينو دو لا بينسونيير، إلى غلوريو في أرض آيمون، وجميعهم صرفوني بالكلام. لكن متى يعود الماركيز يا روزيل؟ متى سيعلم كلّ شيء؟ أمن الممكن حدوث ذلك غداً؟

- ربّما.

- وبالتالي لن يهون عليه تركي وحيداً في شجني، سيساعدني، وسيعيد إلي فرانسوا. ألن يعيده إلي يا صغيرتي؟

كان يتحدّث بصوتٍ عال، والكلمات تذهب لترتطم بواجهة القصر التي ردّدت صداها، بصورةٍ أكثر عذوبةً، في المروج والطرق والبساتين حيث ضلّت، أمّا الليل الصافي فسمعها تموت مثلما سمع خشخشة أصوات البهائم في الأدغال.

أمّا روزيل، وبعد أن رأت انزعاج والدها الشديد، فقد جلست بجانبه وتحدّثت معه لبعض الوقت محاولة أن تجد الأمل الذي لم يكن لديها. ولا ريب أنها انبعثت عنها فضيلة مطمئنة

وقوة عزاء، وسرعان ما قام من تلقاء نفسه وأخذ ذراع الفتاة عندما قالت:

- إلى البيت يا أبي، فماتوران هناك في انتظارك.

كان يحدّق باهتمامٍ في روزيل الصغيرة الجميلة التي نال منها الشحوب جرّاء التعب والعاطفة، وأجابها:

- صحيح، ينبغي علينا أن نعود، فماتوران هناك.

ومرّةً أخرى مرّ كلاهما قبالة واجهة القصر، ودخلوا الممرّ المؤدي إلى المباني الملحقة ومن بعدها إلى حقول المزرعة، ولمّا اقتربا من لا فرومنتييز، شعرت روزيل أن المرابع بدأ باستعادة رباطة جأشه. وحينما أصبحا في الفناء قالت، في حالةٍ من الشفقة على العاجز:

- ماتوران حزين بشدّة أيضاً يا أبي، لا تحدّثه كثيراً عن شجنك.

مسح المرابع، المنتعش بشجاعته وإدراكه الصافي، عينيه وقبّل روزيل، وفتح باب الغرفة حيث كان العاجز المتمدّد يفكّر بجانب الشمعة التي تكاد تحترق، وقال له:

- ماتوران، لا تبتئس كثيراً يا بني، فهما قد رحلا، لكن دريو سيعود.

VI

عودة ذريو

سرعان ما وصلت رسالة مختومة من الجزائر، رسالة قدّمت معطيات الرحلة ومراحلها يوماً بيوم. وتحت أشجار الدردار في لا فرومنتييز، تبعت هذه الكلمات بعضها البعض بفاصلٍ زمني مدّته أربع وعشرون ساعة، وقرأها أحد أولئك الذين بقوا وتأمّل الآخرين بتقوى: «سيغادر دريو الجزائر في هذا الوقت – أبحر دريو في البحر – ركب دريو قطار مارسيليا – ها هو الآن في أرض فرنسا يا أبنائي!».

لذلك صبيحة آخر سبتٍ من شهر سبتمبر، وضع توسان لومينو حصّةً مضاعفة من الشوفان للفرس لاروس، وسحب من الحظيرة العربة التي طلى هيكلها وعجلاتها بالأحمر. تلك العربة التي كانت من بقايا الازدهار القديم ومعروفة في كافّة أنحاء البلاد، وكذلك رأس توسان لومينو المستدير وشعره الأبيض وعيناه الصافيتان. هذا الأخير بدا مسروراً للغاية أثناء قرن فرسه بالعربة، لدرجة أن روزيل، التي لم تره ضاحكاً منذ مدّةٍ طويلة، نظرت إليه من عتبة المنزل وشعرت أنها على وشك البكاء دون أن تعرف سبباً لذلك، كما لو حلّ الربيع. وبعد أن عقد آخر حزام، ارتدى سترته الجميلة ذات الياقة المستقيمة وربط حزامه الأزرق الكبير المستخدم لأيّام الآحاد فوق صدريّته، ووضع سيجارين في جيبه، واللذين كانا بمثابة حلوى يحرم نفسه منها الآن. ثمّ صعد إلى العربة

وصرخ من فوره:

- انطلقي يا لاروس!

كانت تغزل بسرعةٍ كبيرةٍ لدرجة أنّ غطاء رأسها، المزدان بوردةٍ، بدا كخشخاشٍ تحمله الريح ويقشط الشجيرات. كان باروج هناك، فصاح به سيّده في الطريق: «دريو هو الذي عاد يا باروج! لنذهب لملاقاته!». وتبع الحيوان الأشعث لاروس بجريه الشبيه بجري ذئبٍ متأرجحٍ على أفخاذه، وسرعان ما أصبح كلاهما في شالان. اجتاز المرابع الشوارع دون أن يبطئ من سرعته، وأثناء مروره حيّا مدير فندق «المسافرين» وردّ التحايا على بعض أصحاب المتاجر مبيّناً بوضوح، من خلال المدى الصغير لرفعة قبّعته، التفوّق الكامل للمرابع على التاجر، وشديد الفخر أثناء إمساكه باللجام ومبتعداً نحو المحطّة التي تبعد نحو كيلومتر عن المدينة. أمّا الأشخاص الذين يصبحون وراءه فيتهامسون: «ذاهبٌ لملاقاة ابنه! هذا ما يبدو واضحاً! هو الذي عانى من سوء الحظ، لكن هنا له نصيبه من الحظ!»

نظراً لأنّ لاروس كانت مفعمة بالحيويّة، نزل لومينو من العربة في ساحة المحطّة وقف على رأس الفرس، ومن هناك استطاع أن يرى سكّك الحديد هاربةً نحو لاروش، الطريق التي غادر أحد أبنائه من خلالها، والتي أيضاً من خلالها سيعود آخرٌ إلى لا فرومنتيير في هذه الساعة. لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى اندفعت القاطرة إلى الأمام وهي تصفر، وكان المزارع ما يزال يجاهد بوجه الفرس الخائفة من الضجيج

لحظة خرج أوّل المسافرين: برجوازيون من شالان، بحّارةٌ في إجازة، بائعو أسماكٍ من سان جيل أو من رمال أولون، وأخيراً صيّادٌ وسيمٌ نحيلٌ آتٍ من أفريقيا، يضع الطربوش على رأسه ويرفع شاربه الأشقر وحقيبته مملوءة بالأشياء، تفحّص الباحة بطرفة عينٍ ورسم ابتسامةً وركض فاتحاً ذراعيه.

- أبي! آه، يا له من حظ! إنّه أبي!

عددٌ قليلٌ من الشهود اللامبالين رأوا رجلين يتبادلان القبل أمام الجميع ويتعانقان حد الاختناق.

- حبيبي دريو! كم أنا سعيد! قال العجوز.

- وأنا أيضاً يا أبي!

- لا، ليس مثلي! لو تعرف!

- ماذا هناك إذاً؟

- سأخبرك بذلك حبيبي دريو، كم هو جميلٌ أن أراك مرّة أخرى!

وانفصلا عن بعضهما، فقام الجنديّ الشاب بترتيب ربطة عنقه وتركيز طربوشه الذي سقط.

- في الواقع، عليك أن تخبرني بأشياء من ذلك الوقت. قال دريو. هي كبيرة ربّما، أليس كذلك؟ ستخبرني إياها شيئاً تلو شيءٍ في لا فرومنتيير أثناء عملك... سيكون ذلك أفضل من الرسائل أليس كذلك؟

وضحك رافعاً رأسه الأشقر.

لم يكن لدى الأب شيء من القوّة سوى ليبتسم. ثمّ اقتربا من العربة وصعدا إليها، أحدهما عن اليمين وآخر عن اليسار، بالاندفاع نفسه كما لو أنّهما من نفس العمر.

- دعني أقود. قال الابن.

وأخذ اللجام ونقر على لسانه، فوخزت لاروس أذنيها وأثارت قوائمها، لكن من أجل اللهو ولتظهر أنّها تعرّفت على سيّدها الشاب. وممدّدةً هرولتها، رافعةً رأسها وملتهبة عينيها، مرّت على القاطرتين الفارغتين اللتين تجتهدان لزيادة سرعتهما في طريق العودة إلى الفندق. وفي الشوارع أولئك الذين حيّوا المرابع منذ قليل وآخرون ما زالوا ينتظرون مرور الرجلين: غاسلات الملابس اللواتي ينشرن الغسيل أثناء نظرهنّ للخارج؛ صانع القبّعات القصير من نانت الذي يتوقّف عند بداية كلّ موسم لتلبية طلبات سيدات شالان؛ البائعون على أبواب المتاجر؛ الفلاحون الجالسون في صالات النزل؛ جميع هؤلاء مستمتعون برؤية الجنديّ أو يشعرون بالإطراء لعلاقة صداقتهم مع عائلة لومينو. لكن لاروس تهرول بسرعةٍ لدرجة أنّ الأب لم يملك الوقت لتسريح شعره بين رفعتين للقبّعة. وتتبّعت كلماتٌ العربة في ثلمِ هوائيّ نحتته:

- إنّه ذاك العائد من أفريقيا... يا له من فتى جميل! سترته الزرقاء لائقة عليه تماماً... أمّا العجوز، فيا لسعادته!

عانق المرابع ولده العائد، وعندما بلغا منتصف الشارع

الأخير، على طول تعريشةٍ تزرع أوراقها على الطريق، وضع أصابعه الكبيرة في جيبه ودفع مرفق دريو ليشير إليه بالسيجارين اللذين يحملهما بين إبهامه وسبّابته، ليقول الشاب: «بكلّ سرور!»، وأشعل السيجار مبطئاً من وتيرة هرولة لاروس. ومن ثمّ بعد بضع نفخات، عندما بدأت منحدرات الجولق المزهر والحقول الصخرية وأذن البحر مع تيجانها تظهر نفسها وتلفه في حلاوة الأشياء المعروفة، بدأ دريو يقول، وهو الذي ظل حتى ذلك الحين صامتًا وفخورًا بعض الشيء بسبب العالم:

- كيف حال الجميع في بيتنا يا أبي؟

تجعّدت ثنيةٌ عميقةٌ في جبين المرابع وبين حاجبيه. التفت توسان لومينو قليلاً نحو الريف وهو يشعر بالاضطراب حيال مصارحته عن المحنة، وأكثر من ذلك بسبب تخوّفه ممّا كان سيفكّر فيه دريو الوسيم، فقال:

- ولدي المسكين، لم يعد في منزلنا سوى ماتوران وروزيل.

- وأين هو فرانسوا؟

- تخيّل... لن تتوقّع ما سأخبرك به. لقد غادر لا فرومنتيير منذ أسبوعين ليعمل في سكك الحديد في لاروش، وإليونور غادرت معه أيضاً... يبدو أنّها ستعمل داخل مقهى، إن كنت تصدّق!

- هل طردتهما إذاً؟ قال الشاب بعد أن سحب السيجار من فمه ووضع عينيه بعيني الأب. أليسا بمجنونين ليتركاك من

أجل ذلك؟

وعند سماعه هذه الكلمات ارتجف الأب من الفرح: دريو يفهمه، حبيبه دريو معه. فقال وهو ينظر إليه:

- أبداً، فكلاهما كسول يريد كسب المال دون فعل أيّ شيء... إنّهما عاقّان يتركان كبار السن... كما ينبغي عليك أن تعلم أنّ فرانسوا يحب الاستمتاع، فمنذ أيام الجنديّة وهو يتذوّق طعم المدينة.

- أعرفه جيّداً، وأتفهّم محبّتهما للمدينة. أجاب أندريه الذي جلد لاروس بالسوط. لكن لتشحيم عجلات العربة أو لتقديم المشروبات... في النهاية كل واحدٍ يسير بطريقته الخاصة في هذا العالم، وسيكون ذلك أفضل بكثير إذا نجحوا ... أنا فقط لا أستطيع أن أخبرك عن شعوري عندما علمت أن فرانسوا قد رحل، لأنني أكون سعيداً جداً بالعمل معه!

ومكث بعض الوقت مائلاً إلى الأمام وكأنّه لا يعير انتباهاً لشيءٍ سوى لأذني الفرس الرفيعة وهي تتحرّك، ومن ثمّ سأل بصوته الرقيق:

- إذاً نحن نعاني من البؤس يا أبي؟

- بعض البؤس يا بني، لكن معك لن يكون هناك شيء منه.

لم يردّ أندريه مباشرةً ولا على الفور، بل نظر في الأفق باحثاً عن برج الكنيسة الصخري ورؤوس الأشجار، وما زال من الصعب التعرّف عليه، فقلبه في المنزل فعلاً، فقال:

- على الأقل بقيت روزيل! كانت جميلةً حقاً، أثناء إجازتي الأخيرة، وفتيّة ومثابرة! لا يمكنك تخيل عدد المرات التي فكرت بها في إفريقيا، فقد رسمت صورتها من الذاكرة. هل ما زالت ودودة جداً؟

- إنّها غير متضايقة. أجاب المرابع.

- وفتاةٌ طيّبة، أليس كذلك؟ ها هي واحدة لن ترحل لتخدم في النزل.

- ليس لهذا الأمر.

أبطأ الجنديّ الوسيم من وتيرة عدو الفرس، أوّلاً وقبل كلّ شيءٍ لأنّ الطريق كانت على وشك الانعطاف والانحدار، وأيضاً من أجل رؤيةٍ أفضل لأهوار فونديه التي انفتحت كالخليج على امتداد الأرض المنحدرة. كان قد زار منزله مرّةً واحدةً خلال سنوات خدمته الثلاث، وبعاطفةٍ متزايدةٍ تأمّل جزر أشجار الحور والأسطح الورديّة الصغيرة المفقودة في المساحات العشبيّة، فتجوّل بصره من واحدٍ إلى آخر وكلّما سمى إحداها ارتجفت شفتاه. كلّ المشاعر الأخرى صمتت أمام مشاعر العودة.

- باري دو مون! قال الجندي. ماذا حدث للابن البكر في عائلة إيستوس؟

- ليس بالكثير يا بني، فهو الآن موظّفٌ بالجمارك.

- وماذا بخصوص بيرينو دو لا بينسونيير الذي كان في

الصف الثاني والثلاثين؟

- شأنه شأن فرانسوا، يقود الترامواي في مدينة نانت.

- وماذا عن دومينيك بروتشو دو ليفريل؟

هزّ المزارع كتفيه مستاءً، لأنّه كان قليل الحظ في الحقيقة، حيث ظلّ يجيب: «رحل، ذهب، خائن الأهوار». ومع ذلك كان عليه الاعتراف:

- على الأرجح علمت أنّه نال الشارات الذهبيّة عند انتهاء إجازته الأولى، فأخذ إجازةً ثانيةً وأُعطي مرتبةً في سجلات الحكومة، لا أعرف أين. الكثير من النكات السيّئة لدى جميع هؤلاء الشباب! لا يعني ذلك الكثير يا دريو!

- آه! أرى أرض آيمون! صاح أندريه. تبدو لي أقلّ بعداً عن ذي قبل، كما أرى كومة القشّ خاصّتهم. أخبرني يا أبي، كان هناك اثنان من رفاقي هناك، أبناء ماسونو لو غلوريو، أحدهما أكبر مني والآخر أصغر. ماذا يفعلان الآن؟

أجاب توسان لومينو بزهو:

- كلاهما يعملُ في الزراعة! وقد أعفى البكر الآخر. إنّهما عاملان جيّدان لا يخافان من العمل، وستراهما في قدّاس يوم الأحد في سالِرتِن.

بقيا صامتين للحظة، والطريق تمتدّ منحنيةً وعلى يسارها تتراءى لا فرومنتيير. وبالحركة ذاتها نهض الأب والابن على قدميهما بعض الشيء، وكلاهما متمسّك بحافّة العربة وفكّرا

في الحقل، فيما كانت لاروس تهرول دون أن يعتني بها أحد. ثقة شعورٌ نبيلٌ ورؤومٌ وقاسٍ أدى لشحوب وجه دريو، فقد رحب الريف بابنه. بالنسبة له، كلّ شبابه المشتّت في الأشياء استيقظ وتكلّم. لم يكن هناك كتلة من الأرض لم تصرخ له مرحّبةً، ولا جولقة، ولا شجرة دردار ذات أطراف مظهرها ليس ودوداً، لكن كل شيءٍ ذكره أيضًا بالأخ والأخت اللذين لن يجدهما مرة أخرى.

دون أن يصرف انتباهه عن لا فرومنتيير أجاب بعد صمت، ودون أن يحدّد ما يفكّر به:

- سأذهب لرؤيتهما في لاروش حتماً... لكنّنا لم نعد أخوة منذ لم نعد ريفيين.

وفي الفناء بعد برهةٍ حمل روزيل الصغيرة التي ركضت لمقابلته على بعد ذراع، ونظر مباشرةً إلى وجهها وأعماق عينيها وعانقها ومن ثمّ أعادها إلى الأرض.

- ما زلت كما أنت شقيقتي روزيل! هذا جيّد! القليل من الحزن على الرغم من فقدان إليونورا

- أرأيت ذلك؟

- طبعاً بكلّ تأكيد، لكن ها أنا ذا! سنحاولُ العيش بدونهما، أليس كذلك؟

- وأنا؟ قال صوتٌ ضخم.

ترك الجندي روزيل واتجه لملاقاة ماتوران الذي أتى وهو

يجرّ رجليه.

- لا تستعجل أيّها العجوز، فأمر الركض متروك لي: لديّ رجلان جيّدتان!

متكئاً على العكازات ومداعباً رأس البكر، لم يستطع أندريه إيجاد كلمةٍ تريحه، فهو الذي خرج من تلك الدوائر العسكرية حيث كان كل شيء فيه شابّا وجاهزًا ومنتبهًا، لم يعد يعرف كيف يخفي ارتباكه ونوع الرعب الذي تسبب فيه مرض ماتوران. ومع ذلك، متأثراً بنظرة القلق لدى المريض الذي سأل: «ما رأيك بي؟ أحكم عليّ أيّها العائد. هل سأتمكن من العيش؟»، انتهى به الأمر قائلاً:

- عجوزي المسكين، إنّني سعيدٌ جداً لرؤيتك مرّةً أخرى، إذاً لن يزداد الأمر سوءاً، أليس كذلك؟

وبضربةٍ من كتفه دفعه العاجزُ ساخطاً وأجابه:

- سيغدو الأمر أفضل بكثيرٍ وسترى، فأنا أمشي بسهولةٍ أكبر وعدتُ للوقوف كما كنت قبل ثلاث سنوات عندما اعتقدتُ أنّني شُفيت. وبادئ ذي بدءٍ سأذهب معك لحضور القدّاس في سالِرتِن.

ولتجنّب الإجابة، التفت الجندي صوب الأب الذي فكّ رباط لاروس واقترب إلى الأمام ووجهه مشرقٌ وعيناه مصوّبتان فقط نحو دريو الذي عاد ووجده. واقتربا من بعضهما البعض ومشيا صوب المنزل ودخلاه، لكنّ المرابع هو من أفسح المجال لابنه وهو الذي تبعه في يوم السلوان هذا. أمّا الابن

العائد فمضى إلى الأمام بمرونةٍ وفضولٍ كما لو أنّه في أوّل زيارةٍ للمكان، وسعيداً بأن يراه الآخرون ويستمعون إليه. لم يجلس أبداً، بل ظلّ يسير من غرفةٍ إلى أخرى بزيّه الأزرق والأحمر كغريبٍ في منزل مزارعي القمح هذا، كما جعل من عباراته تسلية «لا فرومنتييز»، كما اصطدم بالزوايا عمداً كي يشعر بإطار الحجارة القديمة التي دخل إليها، ومن ثمّ فتح النمليّة واقتطع لنفسه قطعةَ خبزٍ وعضّ عليها قائلاً:

- هذا الخبز أطيب من خبز الجزائر يا أصدقائي! إنّه من خبزِ روزيل أليس كذلك؟ خبزٌ مثالي. سيكون لدينا مرابعةٌ جيّدة.

وخرج من المنزل متّجهاً نحو الإسطبلات والحظائر، فيما كان الأب وماتوران وماري روز يتبعونه على الدوام.

- هذان الثوران لم أكن أعرفهما. قال الجندي.

- لا يا بني، فقد اشتريتهما خلال الشتاء الفائت من سوق بوفوار.

- حسناً! أراهن أنني أستطيع تخمين اسميهما من خلال وجهيهما! هذا المصفر الذي يبدو كسولاً اسمه نوبليه، أمّا رفيقه الأصهب هذا فهو ماتِلو.

- مئة بالمئة. صاح الأب.

- أمّا بالنسبة لثورينا القديمين الباقيين فهما لم يتغيّرا، لكنّهما اكتسبا القوّة وبرزت قرونهما، وينبغي على المحراث أن

يحرث جيّداً معهما. مرحباً بالادين! مرحباً كافالييه!

سمعت الحيوانات الطيّبة، المنطرحة فوق روثها، ذلك الصوت الشاب الذي يتحدّث إليها، فأحنت رؤوسها وتأمّلت أندريه بعيونٍ متأثّرة.

وأبعد بقليلٍ انحنى وتناول حفنةً من العلف الأخضر وقال:

- ذرةٌ جميلةٌ لهذا الموسم! حتماً هذه من مناطقنا العلويّة، من كايّتري.

- أبداً.

- من جوبينيير إذاً حيث لا تضيع حبّة. إنّها موقعٌ جميل.

أجاب الأب عن ثيرانه، وحقوله وكل شيء، سعيدًا لأن آخر أبنائه، وبعد ثلاث سنواتٍ من الغياب، ما زال يحبّ الأرض.

لكن الفارس الوسيم ضحك أكثر مما شاء وأخفى الأفكار الحزينة التي راودته أثناء زيارته، إذ تظاهر بأنه لا يرى أفخاخ الشحرور في السقيفة التي بناها فرانسوا الشتاء الماضي. وبعيداً في البيدر الشبيه ببارجةٍ مصنوعةٍ من القش، الطويل والمستدير أعلاه، كان هناك باقة ذابلة، فانحنى نحو روزيل وهمس قائلاً:

- هل فرنسوا الذي قطعها أيضاً؟ لديّ حزنٌ لم أتخيّله بألا أجده مرّةً أخرى يا روزيل. تغيّرت لا فرومنتيير بالنسبة إلي.

لكنّ الأب لم يسمع شيئاً، إذ ظلّ ينظرُ إلى الابن العائد ومستقبل لا فرومنتيير المؤكّد. وعندما دخلوا جميعًا إلى

الغرفة المشتركة مرّر يده على سترة الصياد الأفريقي الزرقاء وقال:

- تعجبني وأنت بهذه الهيئة، لكنّني أراهن أنّك لن تكون آسفاً لتخلّيك عن ملابسك العسكرية، أليس كذلك؟

- صحيحٌ يا أبي. أجاب أندريه ضاحكاً على خطأ الكلمات ودعوة الأب المقنعة. لستُ متماشياً مع ما يروج في سالِرتِن: سأبدأ بترتيب أموري.

وفي الجزء الخلفيّ من الخزنة، بالقرب من السرير حيث كان ينام في آخر غرفةٍ مع حلول المساء، أخرج أندريه ملابس العمل القطعة تلو الأخرى، والتي بدت ضيّقة يوم مغادرته، ورفع شاربه وحافّة قبّعته بغنجٍ وزيّن عروته بغصن ياسمينٍ متدلٍّ من أعلى النافذة. وسرعان ما عبر المنزل مرّةً أخرى وفتح باب المطبخ، وبين الجدران العتيقة شوهد أجملُ فونديٍّ في الأهوار واقفاً، نحيلاً داخل سترته المحدّدة بثنيات، أشقر الشعر وبنيّ الوجه، وجهه السعيد بفرحة الآخرين.

- أوه! حبيبي دريو! قال الأب بمرح. الآن قد عدت بكلّ معنى الكلمة! كنت ابني في كلّ لحظة، ولكن ليس كما أنت الآن. وأضاف: تعال واشرب معنا! سنشرب نخب صحّتك ولكي تبقى في لا فرومنتيير، فأنا أتقدّم في العمر سريعاً، وستكون بديلاً لي.

واكفهرّ وجه ماتوران الذي كان بالقرب من الطاولة بجانب

الأب، وعندما مُلِئَت الكؤوس رفع كأسه مع الآخرين، لكنّه لم يطرقها بكأس أندريه.

VII

في باحة الكنيسة

دقّت الأجراس في ختام القدّاس الكبير، وقال فتى الكورال: الشكر للرب(2). وكما في أيّام شبابها، ومنا في السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر عندما بُنيت في الجزء العلويّ من جزيرة سالِرتِن، شهدت الكنيسة الصغيرة، والتي اصفرت بكاملها جراء الأشنات وأزهار المنثور على جدرانها، جمهور المؤمنين وهم يرتدون على نفس الشاكلة القديمة، يتقاطرون بنفس الترتيب، يدخلون من نفس الأبواب ويشكلون نفس المجموعات المتجانسة في الباحة.

- سيخرج! قالت العظيمة إيميه ماسونّو ابنة عائلة غلوريو من أرض آيمون. هل رأيتم ذلك المسكين ماتوران لومينو؟ أراد المجيء إلى القدّاس: أعفاه الله منه!

- أجل. أجابتها تلك الصهباء الصغيرة من مالابري. مرّت ستّ سنواتٍ على ظهوره الأخير في سالِرتِن.

- ستّ سنواتٍ، أأنت متأكّدة؟

- ما زلت أتذكّر: كانت السنة التي تزوّجت فيها أختي.

- وهل فكّرتم في سبب مجيئه؟ سألت فيكتوار غيرينو دو لا بينسونيير، تلك الفتاة الجميلة ذات البشرة الورديّة كزهرة النسرين وذات اللسان السليط. لأنّ عليه أن يأخذ أمر مجيئه على عاتقه!

- هذا شرفٌ للأب. قال صوتٌ مجهول. ظلّ الرجل العجوز حزينًا جدًا منذ ذلك الحين لدرجة أن إليونور وفرانسوا قد رحلا!

- هذا لأجل التباهي بأخيه أندريه! قال صوتٌ آخر. أندريه لومينو فتى جميل! وإذا كان يريدني...

ضحكت فيكتوار غيرينو مع الأخريات وتابعت:

- أنتنّ لا تستوعبن شيئاً: لقد جاء من أجل فليسيتيه غوفري.

- أوه! أوه! قالت جميع النساء الموجودات في الصفوف الأماميّة. كم أنت لئيمة! ماذا لو سمعتكِ؟!

واتجهت العديد منهنّ نحو سلّم الشقيقتين ميشلون، حيث وجدت بالقرب منه خطيبة ماتوران لومينو السابقة وسط تجمّعٍ صغير، لكن ما لبث أن انبعثت ضجّة.

- ها هو! المسكين! يا لمدى صعوبة البقاء على قيد الحياة!

في الحقيقة كان ثمّة كائنٌ مشوّهٌ يتحرّك تحت القوس القوطيّ المطليّ بالكلس في إطار الباب المنخفض المفتوح من مصراعٍ واحد. ومحاصراً بين الحائط والعمود الخشبي، جاهد من أجل المرور عبر هذا المسار الضيّق. إحدى يديه التي ترفع عكازًا، معلقةٌ على أحد أعمدة الواجهة وتحاول جذب الجسد. مر كتفٌ واحدٌ ورأسٌ مرفوعٌ إلى الوراء قليلاً، الرأس المتألم الذي تحدّث عن عنف الجهد وقوّة الإرادة التي

لم تستسلم أبدًا. بدا ماتوران لومينيو مختنقاً، ولم ينظر إلى أي شخصٍ في هذا العدد الهائل الذي كان نقطةً محوريّةً فيه. أمّا نظرته المرفوعة فوق فتيات سالِرتِن هناك بقليل فتأمّل في السماء صافية بتعبير عن الكرب الذي أثر على الحشد. انقطعت الأحاديث وبدأت الأصوات تتهامس:

- ساعدوه! إنّه يختنق!

حينها قام بضعة رجالٍ بحركةٍ للاقتراب من العاجز ومساعدته. في هذه اللحظة بالذات، في ظل الكنيسة غير المرئي، كان الأب العجوز يسأل:

- أتريدني أن آخذك بعيداً يا ماتوران؟ لا يمكن المرور من هنا: أتريد ذلك؟

فأجاب الآخر بصوتٍ خفيضٍ، بلهجةٍ من الطاقة الرهيبة التي لم يستطع أحد في الخارج استيعابها:

- لا تلمسني! ابتعد عنّي! لا تلمسني! سأخرجُ لوحدي!

أخيراً حرّر الجسد الضخم نفسه واندفع إلى الأمام، لكنّ الرجل واجه صعوبةً في تجنّب السقوط واستعادة رباطة جأشه. وعندما استطاع التوقّف مسّد لحيته الصهباء وركّز قبّعته التي أزاحتها الزلزلة. وبعد ذلك بات بإمكان ماتوران لومينو إمساك عكّازيه بإحكام والاتكاء قدر استطاعته على ساقيه، ونظر أمامه مباشرةً واتّجه نحو جموع الرجال الذين فتحوا له الطريق بصمت دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منه. فُقِدت عادة رؤيته، ولم يكن أحد يعرف ما الذي سيقوم

بفعله، غير أنّ كل الاهتمام انصبّ عليه، فلم يلاحظ أحد المرابع، ولا أندريه ولا ماري روز الذين جاءوا من ورائه وسعوا للانضمام إليه.

سرعان ما وصل العاجزُ إلى المكان حيث تجمّعت الفتيات الشابات، فتفرقن كما تفرقّ الرجال بشكلٍ أسرع لأنهنّ فهمن ما يريده، ووجد بينهنّ ممرّاً ممتدّاً نحو المنازل.

عندها، في عمق هذا الحيّ المليء بالفساتين السوداء والقبّعات البيضاء، شوهِدت فليسيتيه غوفري واقفةً لوحدها قبالة حائط الشقيقتين ميشلون. كانت هي الهدف وهو ما أدركته، وقد توقّعت انتصارها، فبمجرّد أن رأت ماتوران في مقعد عائلة لومينو قالت في سرّها: «لقد جاء من أجلي، سأختبئ في الجزء الخلفيّ من الباحة وسيلاحقني». فقد كانت فخورةً بإظهار أنّه ما يزال يحبّها، هذه الفتاة الطويلة والجميلة التي لم يرغب أحد في الزواج منها.

أمّا النساء اللواتي كنّ يتحدّثن معها فقد ابتعدن بحذر، فتُركت الماريشيّة لوحدها تحت نافذة الشقيقتين ميشلون. ومستقيمةً، مرتديةً أقمشةً صلبةً وثقيلة كدمية المتحف، وعصباتِ رأسها البنية متألّقةً تحت غطاءِ رأسها الصغير، وبشرتها بيضاء بصفاقةٍ وعنقها مكشوف، وذراعاها متدلّيان على طول مئزرها المموج، شاهدت خطيبها العاجز يقترب منها بين حاجزين من الأشخاص الفضوليين، لذا فإن العديد من الوجوه المرفوعة أو المائلة إليها لم تخِفها. ربّما تعرّفت على ظهر ماتوران من خلال السترة نفسها التي ارتداها

ليلة المحنة، وحول رقبته ربطة العنق نفسها التي أخذها من الخزانة. ظلّت هادئةً وجريئةً حتّى أنّها رسمت ابتسامةً خفيفة، فيما وصل ماتوران متّكئاً على عكّازيه وعيناه مثبتتان عليها وليس على الطريق. ما أراده هذا الفتى المسكين هو رؤيتها مرّةً أخرى، وأيضاً إفهامها أنّ العافية تولد فيه من جديد، وأنّ ثمّة أملاً نهض من بؤسه، وأنّ قلب ماتوران لومينو لم يتغيّر. كلّ هذا قالته عيناه الداكنتان أثناء اقترابه. وفي صلاةٍ مؤسفةٍ عُرِضت آلام جسده وعقله الطويلة على من تسبّبت بها، لكنّ قوتّه خانته. كما أصبح شاحبًا للغاية عندما كانت الفتاة الجميلة، أمام كلّ هؤلاء الناس، أول من تقول له:

- طاب يومك ماتوران!

لم يستطع الإجابة. رأى شفتي الماريشيّة الأرجوانيّتان تبتسمان، ولأنّه بات قريباً منها، وسمعها تتحدّث بالنبرة ذاتها كما لو تركا بعضهما البعض في اليوم الفائت، أغمي عليه.

أما رأسه الأصهب بعض الشيء بين عكّازيه فقد مال نحو دريو الذي كان وراءه، وناشدته نظرته «خذني بعيداً!»، ففهم الابن الأصغر ووضع ذراعه تحت ذراع أخيه، ومن ثمّ أجاب بصوتٍ عالٍ ليعطي انطباعاً وليشتت انتباه الحاضرين:

- طاب نهارك أيضاً فليسيتيه! مرّ وقتٌ طويلٌ لم أرك فيه: لم يغيّرك الزمن.

- ولا أنت. أجابت بدورها.

شمعت بعض الضحكات، لكن من بين أولئك الموجودين ثمة أرواحٌ بكت سرّاً أو رقّت. تأثّرت بعض الشابات الصغيرات من بين بنات سالِرتِن بحالة الرجل البائس الذي غادر مرتبكاً، مرهقاً ومستنداً بذراعِ شخصٍ آخر، وأشفقن على العاجز الذي لم ينل حبّاً كذلك الذي أعدّته كلّ واحدةٍ في قلبها ووعدت به للخطيب المجهول. همست إحداهنّ:

- إنّه ليس مريضاً في ساقيه فقط، بل نال المرض من كامل روحه!

تباطأت حركة العديد من النساء والأمهات اللائي كنّ عائدات مع أبنائهنّ عندما رأين المجموعة تترجّل نحو الطريق المؤدية إلى شالان: العجوز توسان، أندريه وماتوران، وماري روز خلفهم. تذكرن برعشةِ خوفٍ الشاب الرائع المصاب بالشلل، وفكرن: «نأمل ألا يحدث هذا كثيرًا لأبنائنا الذين يكبرون!».

بدأ التأثّر يسري في روح فليسيتيه غوفري، لكن بعاطفةٍ مختلفة، فبعد مغادرة عائلة لومينو سرعان ما تحوّل الفضول بعيداً عنها. إذ أحاطت مجموعة من الرجال بحارس الريف الذي ارتقى عموداً ونشر الممتلكات المفقودة والمزارع المعروضة للإيجار، فيما ذهبت مجموعة أخرى إلى الحانات. واجتمعت الفتيات الشابات في مجموعاتٍ صغيرة من أجل العودة، وخلال كلّ لحظةٍ يمكن رؤية خمسٍ أو ستّ قبّعات بيضاء، مع التحيّة التي تميلها وترفعها، تنفصل عن أخرى وتنزل إلى اليمين أو اليسار. انضمّت فليسيتيه، التي كانت

لوحدها تحت نافذة الشقيقتين ميشلون لعدة دقائق، إلى إحدى هذه المجموعات التي يمفترض أن تتجه نحو الأهوار العليا نحو الغرب من سالِرتِن، واسثقبِلت بقليلٍ من الإحراج، كفتاةٍ متورّطة، من قبل اللواتي لم يردن التشاجر معها، وذلك لأنّ الأمّهات أوصين بعدم مخالطتها. علت صيحاتٌ تدلّ عليها، أثناء مرورها بالقرب من الحانات، واستفزازاتٍ من قبل شبّان متجمّعين وثملين. لم ترد، واندفعت رفقة رفيقاتها إلى أسفل التلّ الصغير الذي يحملُ منازل البلدة، ومن ثمّ تقدّمن إلى وسط الأهوار على الطريق المؤدّية إلى بيرييه.

في هذا الموسم، وبحيث أنّ أمطار الخريف لم تشتدّ غزارتها بعد، فبإمكان المرء الذهاب سيراً على الأقدام، ودون مساعدة الزوارق، إلى العديد من المزارع الصغيرة. أمّا الجسر الخشن وسيئ الصيانة فكان محاطاً بخندقين مليئين بالمياه ويمرّ عبر منتصف المروج، كما غطّى العشب الأخضر الباهت المدى الخالي من التلال ومن أيّ حركةٍ من أيّ نوعٍ وصولاً إلى الأفق البعيد الذي بدا ضبابيّاً بعض الشيء. فيما الخيول التي ترعى قد رفعت أعناقها وشاهدت المجموعة الصغيرة بالأبيض والأسود تمرّ في اتساع المشهد الواحد. وعندما سمعت البطّات الضوضاء انزلقت في الأسلات المرتجفة في رأسها. ومن وقتٍ لآخر يتفرّع ساترٌ ترابيّ أحدب شديد الضيق إلى الطريق. انفصلت إحدى الفتيات الشابات عن المجموعة ووصلت إلى منزلٍ بعيدٍ لا يمكن تخمين مكانه إلا بخصلةٍ من خشب الحور تتصاعد من الأرض مثل الدخان. خرجت

فليسيتيه غوفري من تأملها للحظة قائلة: «إلى اللقاء!» واستأنفت المشي بصمت.

وسرعان ما أصبحت وحيدة على الطريق التي استمرت بالفرار نحو البحر، ثمّ تباطأت وانغمست تمامًا في تأملها دون شهود.

لم تكن سعيدةً على الإطلاق، فالأب غوفري، البالغ من العمر خمسة وستين عاماً، تزوّج مرّةً أخرى من امرأةٍ في الثلاثين من عمرها، عذاءة شواطئ عثر عليها في بار دو مون ومنحها معظم ممتلكاته «كحقّ الشباب». لم تكن زوجة الأب الشابة لطيفة مع فليسيتيه، فكلّ واحدةٍ منهما توبّخ الأخرى، ليس بدون سبب، على الإنفاق المفرط وإفلاس المنزل. قام الأخ الأكبر، موظف بالجمارك في سابل دولون واللاهي والمستهتر، بتهديد الرجل الصالح على الدوام بدعوى قضائيّة للمساءلة وبترهيبه، وبهذه الطريقة استطاع أن يغرف الكثير من رأسمال عائلة غوفري المتضائل باستمرار، وباتت الأسرة القديمة التي صمدت في الأهوار تفلس بسرعة. كانت فليسيتيه على علمٍ بذلك. جاء شباب سالِرتِن والأبرشيّات المجاورة طواعيّةً إلى سهرات لا سوليير، ورقصوا وشربوا معها ومازحوها دون أن يتزوّجها أحد، فالإفلاس المحتمل وانقسامات الأسرة طردت الخاطبين.

لكن ثمّة سبب آخر أكثر صدقاً وولوجاً إلى الأذهان منع أبناء المرابعين وحتى عمال المزارع البسطاء من طلب يد فليسيتيه غوفري. إنّه نوعٌ من رباط الشرف ودين الولاء الذي

أصبح أكثر قداسةً بسبب سوء الحظ، والذي أصر الرأي العام على الحفاظ عليه بين لا سوليير ولا فرومنتيير، ففي أذهان الجميع ظلّت فليسيتيه غوفري مرتبطةً بعائلة لومينو، وهي فتاة ليس لها الحق في التراجع عن وعدها ولا ينبغي البحث عنها لأجل الزواج طالما ماتوران على قيد الحياة. كما شعر البعض، ربما، بخوفٍ خرافي، إذ خافوا من الوقوع في مشكلةٍ مع فتاةٍ لم يحالفها حبّها الأول.

كل التقدم الذي حققته قد فشل.

حول ذلك شعرت بالانزعاج والمرارة، وفي غيظها ذهبت إلى حدّ الأسف لعدم قتل العاجز على الفور، فلو مات، وهو الذي ما زال على قيد الحياة، لاستعادت حريّتها. كان من الممكن نسيان الماضي بسرعة، في حين أنّ ثمّة رجلاً مسكيناً يتجوّل محمولاً بعكّازين، حول المزرعة التي كان من المفروض أن يديرها، وذلك لتذكير كلّ فردٍ من الأبرشيّة نفسها. وجدث أحياناً أن الموت يستغرق وقتاً طويلاً للقضاء على ضحاياه. ومن ثمّ تمالكت نفسها، وكفتاةٍ حكيمةٍ فهمت أنّ الرأي العام ربطها بعائلة لومينو رغماً عنها، وأنّه من خلالها فقط استطاعت تحقيق الطموح الذي يتملّكها: الخروج من لا سوليير، الهروب من سلطة زوجة والدها، إدارة مزرعةٍ كبيرةٍ لتكون أكثر ثراءً مما كانت عليه في منزلها. هي التي لم تُغرَم قط، والتي كانت مخلوقاً مفعماً بالتكبّر حالها حال بعض الفتيات في الريف، قالت لنفسها: «سأنتظر. لن أعود إلى لا فرومنتيير كي أشعر بالندم أكثر من ذلك، ففي يومٍ من الأيام

سيأتي ماتوران إليّ أو سيتّصل بي، فأنا متأكّدةٌ من أنّه لم ينسني. هذا ضربٌ من الجنون، لكنه سيخدمني جيدًا، فبفضله سأعود إلى المنزل وسأراهم جميعًا مرةً أخرى، العجوز الذي لا يحق بي ولكنه سيستسلم، الشباب الذين سيحبونني لأنني جميلة. سأتزوج فرانسوا أو أندريه وسأكون مرابعةً، كما كان ينبغي أن أكون، في أجمل مزرعةٍ في الأبرشيّة».

لكن فرانسوا (والذي حاولت إغواءه) قد غادر، لكن ها هو ماتوران قد جاء بنفسه إليها، وعلى حساب الإرهاق والمعاناة اللا محدودين جرّ نفسه إلى سالِرتِن ليحييّها علانيةً، فيما قال أندريه أمام جميع فتيات القرية:

- مرّ وقتٌ طويلٌ لم أرك فيه: لم يغيّرك الزمن.

قطفت الفتاة البهيّة واحدةً من أزهار السوسن الصفراء التي تنمو بأعدادٍ كبيرةٍ في خنادق الأهوار. ونصف ضاحكةٍ فكّرت في هذا الانتصار الذي حقّقته منذ قليل، فيما تتدلى الزهرة من زاوية شفتيها، تاركةً ذراعيها تتأرجحان وفي كلّ خطوةٍ تحفّان نسيج المئزر بصوتٍ خفيض. ذهبت النظرة بعيداً كمشهد الحدّ المبهم للمروج. اعتقدت أنّ أندريه سيكون زوجاً وسيماً وأكثر أناقةٍ ممّا كان عليه ماتوران في الماضي، علاوةً على ذلك فهو يصغرها بعامٍ واحدٍ فقط، ولديه أسلوبٌ لطيفٌ وجريءٌ للغاية كي يقول لها: «لم يغيّرك الزمن». وفكّرت أيضاً: «في أقرب فرصةٍ سأدعوهم كي يسهروا عندنا، وأنا متأكّدةٌ أن أندريه سيأتي».

مشت ببطءٍ مع طلوع الشمس الوهّاج الوعر، فيما كانت الصراصير تغنّي منتصف النهار. أمّا الرائحة النفّاذة للقصب الذابل فكانت تمرّ على فترات، ولم تدرك فليسيتيه غوفري، فيما كانت مستغرقةً في حلمها، أنّها تكاد تصل إلى منزلها.

بدت وكأنّها داخل صحوةٍ مؤلمةٍ عندما لاحظت بياضاً في المروج نحو اليمين بشكلٍ فجائي: هذه هي لا سوليير. في الوقت ذاته نما شكٌّ في ذهنها، سؤالٌ مقلقٌ ونهايةٌ سيّئةٌ للحلم: ماذا لو غادر أندريه أيضاً؟ أو ماذا لو أنّ ماتوران، والذي كان منتشياً أمام أدنى كلمةٍ للذكرى وأصبح أكثر إلحاحاً وغيرةً، قد خمّن مبكراً بما سيُفكّر فيه حوله؟

توقّفت فليسيتيه غوفري فوق القناة، عند منتصف جسرٍ أحدب يربط المروج ببعضها، ومدّت هذه المخلوقة العظيمة ذراعيها في الشمس وعقدت حاجبيها البنّيين في لحظة غضبٍ وبصقت السوسنة التي سقطت في الماء. ومن ثمّ حدّقت في نفسها ثانيةً بعد أن تبعتها بعينيها وتداركتها مبتسمة.

- سأنجح.

قالت ذلك ونزلت من منحدر الجسر، ووصلت إلى لا سوليير عن طريق المعبر.

---

(2)وردت في نصّ الرواية الأصلي باللاتينية: Deo

.gratias

VIII

مجنّدو سالِرتِن

تميّزت ظهيرة هذا الأحد من خريف هذا العام بسلامٍ أعمق من المعتاد: الهواءُ دافئ؛ النور محتجب؛ أمّا الريح التي علت مع البحر ودفعت حركة مدّها إلى أبعد مما كانت عليه، عابرة السهل العشبي الهائل، فلا يُسمع فيها أيّ ضجة عمل، ولا شكوى محراث، ولا ضربة مغرفةٍ أو مطرقةٍ أو فأس. وحدها الأجراس علا صوتها واستجابت لبعضها البعض، أجراس سالِرتِن، بيرييه، سان جيرفيه، شالان التي توجدُ فيها كنيسة جديدة أشبه بالكاتدرائية، وسولّان التي تختبئ بين أشجار الأراضي المرتفعة. إنّ دوي القدّاس العالي، وطنين صلاة الملائكة، وأصوات صلاة الغروب الثلاثة، جميعها لم تترك لها سوى القليل من الراحة. لقد تخلت عن نفس الكلمات التي سُمِعت عدة مرات وظلّت مفهومة لعدة قرون: عبادة الله، نسيان الأرض، غفران الأخطاء، اللُحمةُ في الصلاة، والمساواة قبل الوعود الأبدية؛ وتطايرت الكلمات في الفضاء وارتبطت بقشعريرة، وبدت كأكاليل الفرح التي تُلقى من برجٍ إلى آخر، ومن بين النقّامين في الأرض، مربّو الماشية وزارعو الحبوب، قلّة قليلة منهم لم تطعها. أما الطرقات التي تظلّ مهجورةً طوال الأسبوع فشهدت ذهاب ومجيء العائلات، بوتيرةٍ سريعةٍ لأولئك المقيمين في ضواحي الأبرشيّة وبوتيرة أبطأ لأولئك المقيمين على مسافةٍ قريبة. وفي القناة الموسعة التي

تنتهي عند سفح الكنيسة وتعمل كميناء لسالِرتِن، كان هناك دائمًا بعض الزوارق.

مع حلول المساء يتوقّف صوت الأجراس، والسكّيرون أنفسهم يغادرون الحانات ويعودون إلى المزارع غافين تحت الضوء الأشقر لغروب الشمس. ثمّة صمتٌ عالمي يجتاح الريف، فعلى الرغم من كونه غير صاخبٍ بشدّةٍ خلال أيّام العمل، إلا أنّه يمسي في نهاية الأسبوع متجمّعاً وصامتاً لبضع ساعات. لهدنة الأحد هذه أهميّة عظيمة، حيث يعاد بناء الأرواح، وحيث تجتمع العائلات بصفاءٍ وتأملٍ لتحصي حيواتها وميتاتها.

لكن السلام لم يدم طويلاً في ذلك اليوم.

كان ماتوران وأندريه لومينو يستريحان في ممرّ لا فرومنتيير الأخضر خارج الباب الحجريّ العالي، تحت أشجار الدردار التي كانت بمثابة مأوى مؤقّت للعربات والمحاريث. أمّا العاجزُ فكان يتعافى من جهد الصباح وإثارته راقداً بشكلٍ نصف دائريّ على العوارض الخشبيّة لأحد المحاريث وواضعاً معطفاً قديماً على ساقيه، فيما لم يرغب أندريه بدافع صداقته معه بالعودة إلى البلدة مع والده، وكان مستلقياً على بطنه فوق العشب ويقرأ الصحيفة بصوتٍ عالٍ. من وقت لآخر كان يعلق على الأخبار، وهو الذي سافر حول العالم، ويوضح أين تقع كليرمون فيران، الهند، اليابان وليل في فلاندرز. وأثناء فعله هذا يفتل شاربه الأشقر الصغير، فظهرت كل زهرة شبابه، القليل من حب الذات الساذج، في وجهه المنفتح

والممتع.

حوالي الساعة الرابعة دوى صوتُ بوقٍ على يسار سالِرتِن. لا بدّ أنّه في منتصف الطريق بين رعيّة لومينو ورعيّة سولّان في قلب الأهوار. استيقظ ماتوران من السبات الذي أغرقته فيه القراءة، ونظر إلى أندريه الذي أوقع الصحيفة عند أول نغمة، وجهه مرفوعٌ وأذناه متوترتان، وابتسم لصوت الأوركسترا.

- هؤلاء فتيان الصف. قال الأكبر. سيغادرون قريباً وسيتنزّهون.

- إنّهم يعزفون أوركسترا الصيّادين الأفارقة. أجاب الأصغر واللهب في عينيه. أعرف ذلك جيّداً، إذاً هناك بوقٌ قديمٌ في منطقتنا في الأهوار.

- نعم، ابن مروّضٍ من الإقطاعيّة. لقد أنهى خدمته في الزواف(4).

واستتبّ صمتٌ استمع فيه الرجلان إلى موسيقا الزواف السابق، وتباينت أفكارهما في هذه اللحظة. رأى أندريه في مخيلته، في أقاصي الأهوار التي كان يحدق بها، بلدةً بيضاء شوارعَ ضيّقةٍ ومجموعة من الفرسان تخرج من بابٍ مزخرف تردد صدى قنطرته. لاحظ ماتوران تعبير أخيه وقال في نفسه: «ما تزال روحه هناك، من حيث أتى». خفّت ملامحه واتسعت عيناه للحظة، كتلك التي يفنجرها وحشٌ وجد فريسته، ثم عاد إلى حلمه المعتاد.

- أتحبّ هذه الموسيقا يا دريو؟ قال بعد وقتٍ طويل.

- طبعاً.

- أنادمٌ على خدمتك في الجيش؟

- لا على سبيل المثال! لا أحد يندم على ذلك.

- إذاً ما الذي أعجبك هناك؟

نظر الشاب إلى وجه الكبير بطرفةِ عينٍ وكأنه يقول: «لماذا تسألني ذلك؟»، ومن ثمّ قال:

- البلاد... استمع مرّةً أخرى... إنّه رنين النفير الآن.

سرعان ما توقّف صوت البوق الهزيل والمندفع، وغنّت الأصوات العالية سيّئة التدريب أغنية الرحيل خمس أو ستّ مرات. بضعُ كلماتٍ فقط وصلت إلى مسامع لا فرومنتيير: «الموت لأجل... البلاد... الأجمل...» فيما ضاعت بقية الكلمات في الفضاء، غير أنّ الضوضاء قد اقتربت. استمع الشقيقان، الساكنان تحت أشجار الدردار وكلٌّ منهما يطارد حلمه الذي ألقته عليه النغمة الأولى، إلى مجنّدي سالِرتِن وهم يصعدون نحوهما.

وعندما وصلوا أخيراً إلى مرج لا فرومنتيير، قال ماتوران الذي تابع صخبهم لوقتٍ طويل، وبإحساسه الرائع بالملاحظة علم بمسارهم، لأندريه:

- لقد توقّفوا في ثلاث مزارع. أعتقد أنّهم يقومون بالبحث عن الصف. ألم تعرف ذلك أنت؟ مر عامان فقط منذ جاءتهم

فكرة الذهاب إلى المنازل حيث توجد فتاة صغيرة في سنهم، ويطلبون منها دجاجة لتخليص نفسها من الخدمة. روزيل في سنّ الخدمة... عليك أن تأخذ دجاجة وتعطيها لهم عندما يمرون.

- سأقوم بذلك! قال أندريه ضاحكاً وناهضاً بقفزة. سأذهب، لكن ما الذي يفعلونه بالدجاجات؟

- سيأكلونها بلا شك! سيكون لديهم عشاءا وداع، ثلاثة، أربعة. أسرِع، إنّهم قادمون.

اختفى أندريه في فناء المزرعة، وسرعان ما سَمِعت ضحكته المتواصلة وخطواته المتسارعة نحو البيدر، ومن بعدها صرخات الهلع لدجاجةٍ لا بد أنّه أمسك بها. عاد بعد بضع دقائق ممسكًا الدجاجة من قدميها، والتي تلامس أجنحتها المستديرة الملطخة باللونين الرمادي والأبيض العشب وتعلو مع إيقاع المشي.

في الوقت نفسه دوى صوت البوق في قاع البستان المغلق. نهض ماتوران نصف جلسةٍ على المحراث، ويداه مسترخيتان على العارضتين، وذراعاه متدلّيتان ورأسه الأشعث ممدودٌ إلى الأمام، وراقب وصول الصاعدين، فيما أندريه واقف بجانبه. أمامهم، فقط عند فتحة الطريق المؤدية إلى الأهوار، كانت الشمس تغرب. ملأت كرتها الهائلة، البرتقالية في الضباب، المساحة الكاملة بين المنحدرين، في الجزء العلوي من التل الخالي من الأشجار.

وها قد ظهرت ثلاث فتياتٍ في ذلك المجد، وصعدن متشابكات، أكبرهنّ في الوسط وثلاثتهنّ يرتدين ملابس سوداء مع قبّعاتٍ من الدانتيل، وكحليّ مناديلهم المخمليّة يضيء فوق أكتافهن. تقدّمن وهنّ يتأرجحن برؤوسهنّ. إنّهنّ فتياتٌ من سالِرتِن، لكنّ الضوء كان وراءهنّ، ولم يكن بمقدور أحدٍ تسميتهنّ باستثناء ماتوران الذي تعرّف على فليسيتيه غوفري التي تتوسّطهن. وعلى بعد خطواتٍ قليلةٍ جاء عازف البوق وحامل الراية وخمسة شبّانٍ على شكل طابور، وكانوا يمسكون الدجاجات التي أخذوها من المزارع، معلّقة بربطة قنّب أو ملقاة على ذراعٍ واحدة.

اتّبعت الفرقة المسار، وسارت مئة مترٍ قبل أن تتوقّف بين أشجار الدردار والجدار المنهار من لا فرومنتيير.

- أيّها الأخوان لومينو، طاب نهاركما. قال صوتٌ ما.

وعلت ضحكاتٌ في الفرقة العملة من السير وموسكاديه(3) المزارع. انحنى العاجز على معصميه ونظر إلى أندريه.

تقدّمت فليسيتيه غوفري قليلاً أمام الفرقة دون أن تترك رفيقاتها، ونظرت بهيئة الرضى عن النفس إلى آخر أنباء لا فرومنتيير الممسك بالدجاجة الرماديّة بطرف ذراعه، وقالت:

- هل توقّعت ذلك يا أندريه؟ يا لهذا الذكاء الطفولي! هيا، خذ دجاجة روزيل يا سوستين باجو.

عندها خرج من الصف فتى قوي البنية، محمرّ الوجه وذاهل السحنة كأولئك الذين بدأوا يفقدون اتزانهم جرّاء مفعول

النبيذ، وأخذ الدجاجة. ولكن من موقف أندريه الساخر، ومن الصمت الذي التزم به، خمّنت فليسيتيه أن الأخير بالكاد يفهم وجود ابنة لا سوليير في مثل هذه الصحبة لأنها أضافت بتهاون:

- يمكنك الظنّ أنّني لا أسير كلّ يومٍ في الأهوار رفقة مجنّدين، وإن فعلت ذلك اليوم فذلك لأجل تقديم معروفٍ لهم. هاتان الصديقتان اللتان تراهما، وهما من الصف، قد تمّ اختيارهما عن طريق القرعة بغية البحث. لكنّهما لن يجرؤا على الذهاب بمفردهما، وكان البحث ليفشل بدوني.

وعبّرت بشكلٍ جيّدٍ مع بحثٍ معيّنٍ يدلّ على عادة القراءة.

- لكنّ هذا سيكون من العار! قال الشاب بغير قناعة.

- أليس كذلك؟ لا سيّما ألا أحد يراني كثيراً في أحيائكم.

وأدارت رأسها نحو نوافذ لا فرومنتيير، نحو الإسطبلات وأكوام القش، وتنهدت وقالت على الفور تقريبًا بنبرةٍ لعوب:

- هل ستسهرُ إحدى هذه الأمسيات معنا يا أندريه؟ الماريشيات يتمنّونك.

وعلته إشارات الاستحسان على يمينه ويساره.

- ربما، قال أندريه. مرّ وقتٌ طويلٌ منذ رقصت في سالِرتِن: قد أستعيد الرغبة.

فشكرته بإغماضةِ عينٍ صغيرة. عندها فقط بدت وكأنّها لاحظت ماتوران لومينو، الذي كان ينظر إليها بشغفٍ وألمٍ

مختلطين. وللتحدّث معه رسمت تعبيراً عن الشفقة والإحراج، وهو ما لم يكن مصطنعاً بالكامل:

- ما أقوله لأيّ أحدٍ أقوله للبيت كله، أتفهم ذلك يا ماتوران... إذا لم يشكّل عبئاً بالنسبة لك؟ كان من دواعي سروري رؤيتك مرّةً أخرى في القدّاس هذا الصباح... فهذا يثبت أنّك أصبحت بحالٍ أفضل...

تمتم العاجز، غير القادر على الرد على أيّ شيءٍ غير الكلمات الجاهزة في ذهنه:

- شكراً فليسيتيه... أنت وفيّةٌ جدّاً يا فليسيتيه...

قال اسمَ فليسيتيه بنوعٍ من العشق الذي بدا وكأنّه يحرّك مشاعر اثنين أو ثلاثة من مجنّدي سالِرتِن، مخبولين تماماً كما كانوا.

- في أيّ كتيبةٍ كنت يا ماتوران؟ سأل حامل الراية.

- كتيبة الفرسان الثالثة!

- أيّها العازف، أوركسترا الفرسان لأجل ماتوران لومينو! إلى الأمام، سرا!

وغادرت فتيات الأهوار الثلاثة، وعازف البوق وحامل العلم والشبّان الخمسة المصطفين خلفهم، تاركين ظلال الدردار، وساروا في الطريق نحو كاترمولان. ومن خلفهم تصاعد الغبار مخترقاً أشعّة الشمس، وأحدث ضجيج الأوركسترا ارتجافةً في الحجارة القديمة للمزرعة.

وعندما اختفت آخر قبّعةٍ من الدانتيل بين الجولق والصفصاف على الطريق، قال ماتوران لأخيه الذي التقط الصحيفة وكان يقرأها شارد الذهن:

- أتصدّق يا دريو أنّها المرّة الأولى التي تمرّ فيها من هنا منذ ستّ سنوات؟

أجاب أندريه بحيويّةٍ كبيرة:

- لقد سحقتك مرّةً واحدةً يا رفيقي المسكين. ينبغي أخذ الحذر لئلا تعاود ذلك!

تمتم ماتوران لومينو بكلماتٍ غاضبة، ورفع عكّازيه ومشى بعيداً بضع خطواتٍ وصولاً نحو آخر شجرةٍ حيث وقف قبالتها. لم يعد الشقيقان يتحدّثان مع بعضهما البعض. كلاهما حدّق على نحوٍ مبهم، مدفوعين بالفطرة، في الأهوار حيث تلاشت آخر إشعاعات النهار. تحت الأراضي المنبسطة كانت الشمس تهبط، وكلّ ما أمكن رؤيته من الجرم، الذي أصبح أحمر اللون، مجرّد هلالٍ تقضمه الظلال، وفيه صفصاف الأفق وكومة من القصب، معتمة بشكلٍ غير معلوم، ترتسم كتاجٍ من الأشواك. اختفت الشمس وهبّت نسمة منعشة فوق التلال، فيما توقّف ضجيج الأوركسترا والأصوات، الآخذة بالابتعاد أكثر فأكثر، عن إزعاج الريف. ساد صمتٌ عظيم، وأشعلت النار هنا وهناك في المدى البني. ولد السلام من جديد: انتهت الآلام، الألم تلو الآخر، بالنوم أو بصلاة المساء.

تعرف لومينو العجوز، الذي وصل لتوه من القرية، على

ولديه إلى جانب الأشجار على الطريق، وعند رؤيتهما بلا حراك أثناء تفكيرهما في الأراضي النائمة، وغير قادرين على تخمين أفكارهما، قال بصوت واضح:

- جميلةٌ هذه الأهوار، أليس كذلك يا أبنائي؟ فلنعد معاً: العشاء ينتظرنا.

وأضاف لأنّ أندريه، في الظلمة، كان أول من سار بهم:

- كم أنا سعيدٌ بعودتك من الجيش حبيبي دريو!

---

(4)بالفرنسيّة Zouaves، وهي الكتائب التي شكّلها الفرنسيون من أبناء الجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي للبلاد، قبل أن تصبح متشكّلة من الفرنسيين بعد هرب الجزائريين منها وانضمامهم إلى الأمير عبد القادر الجزائري في قتاله مع الفرنسيين (المترجم).

(3)بالفرنسيّة Muscadet، نوعٌ من أنواع النبيذ الأبيض الفرنسي الذي يجري تصنيعه بشكلٍ أساسيّ في إقليم اللوار الأطلسيّ جنوب نانت (المترجم).

IX

الكرمة المقتلعة

كان أندريه يشعر بالملل وبخيبة أملٍ من فرحة عودته، فهو لم يعد يحبّ لا فرومنتييير على وضعها الحالي كما كان يحبها في وضعها السابق.

تغيّرت كثيراً! عرفها مفعمةً بالحيويّة من خلال الضوضاء وعمل عائلةٍ كبيرةٍ ومتّحدة، يقودها رجلٌ يحترم سنّه النشاط والبهجة ويخدمها أكثر ممّا تحتاج بذراع، ويعتز بها ويدافع عنها بشكلٍ أعمى كالأعشاش التي لم تغادرها طيورها بعد. عاد ووجدها بهيئةٍ لا يمكن التعرّف عليها. اثنان من الأبناء غادرا تاركين المنزل حزيناً، والأب دون مواساة، والعمل شديد الوطأة على من بقي. أصاب روزيل الإنهاك. شعر أندريه أنه لن يكون بمقدوره وحده الحفاظ على لا فرومنتييير في حالةٍ جيّدةٍ من الزراعة، ولتطويرها قبل كلّ شيء، كما ظلّ يحلم عندما كان في أفريقيا خلال الليالي الحارّة التي لا يمكن النوم فيها، وخلالها كان يفكّر في أشجار الدردار لديه. من الممكن أن يتطلب الأمر شابين قويين على الأقل، دون احتساب مساعدة الخادم: كان هناك حاجة إلى فرانسوا مع أندريه!

هذا الأخير حارب الإحباط الذي غزاه لأنّه كان شجاعاً. كلّ صباحٍ يتّجه نحو الحقول عازماً على العمل بجد، لدرجة أنّ أيّ فكرة أخرى ستكون مستحيلةً بالنسبة له. كان يفلح،

يحرث، ينثر البذار أو يحفر الأثلام، أو حتى يزرع أشجار التفاح، دون أخذ أيّ قسطٍ من الراحة، بكامل قوّته ومن كل قلبه. لكن دائماً ما تعود ذكرى فرانسوا إليه، فثمّة شعورٌ دائمٌ بتدهور المزرعة. باتت أيّام الوحدة طويلة، وطالت أكثر إلى جانب الخادم الجديد، والذي كان عاملاً لا يبالي ولا تهمّه خطط وأسف ابن المرابع هذا. ومع حلول المساء، عندما يعود أندريه إلى المنزل، لمن سيبثّ همه ومن سيواسيه؟ لم تعد الأم على قيد الحياة، وكان الأب يواجه بالفعل صعوبةً كبيرةً في الاحتفاظ بالقدر المناسب من الأمل والشجاعة لنفسه كيلا ينحني تحت وطأة المحن، أمّا ماتوران فكان شبه متأكّدٍ وساخطاً لأنّ الشفقة قد تذهب إليه، ولكن ليس المودّة الحقيقية. ربّما روزيل موجودة، لكنها كانت في السابعة عشرة من عمرها حين تركها أندريه، وبدوره استمرّ الأخير في معاملتها كطفلةٍ ولم يبح لها بأيّ شيء. إلى جانب أنّه بالكاد يمكن رؤية هذه الصغيرة، فهي على الدوام مشغولة وتجري هنا وهناك. منزل ممل! عانى الشاب أكثر مما عاناه بكثير عندما كان في الكتيبة، حيث كانت الحياة صعبة بلا شك، لكنها مليئة بالحركة والحماس!

تمضي الأسابيع، والملل لمّا يدعه وشأنه.

بعد أن سئم هذا الانسحاب إلى نفسه، ترك أندريه روحه تبتعد تدريجياً عن هذا العالم المؤلم حيث حاول عبثاً التعرف على منزل فتوّته. كان مثل هؤلاء الفلاحين الساحليين، هؤلاء العمال الصامتين الذين يحدقون في البحر من فوق الكثبان

الرملية ويعذبهم حلم صغير عندما تهب الرياح. حزينًا ولامسًا سوء الحظ، تذكر المعرفة المؤسفة التي اكتسبها بعيدًا: اعتقد أنه يمكن للمرء أن يعيش في مكان آخر غير لا فرومنتيير، على حافة أهوار فونديه.

أصبح الوسواس ملحّاً. بعد شهرين من استعادة حيازته للغرفة، حيث كان الشقيقان ينامان ذات مرة، وفي إحدى الأمسيات عندما كانت المزرعة بأكملها نائمة، شرع أندريه بالكتابة إلى جندي من الفيلق الأجنبي، وكان قد تعرّف عليه في إفريقيا وتركه هناك: «أشعر بالملل الشديد، فقد غادر أخي وأختي المنزل. إذا كنت تعرف أن هناك فرصة جيدة لاستثمار الأموال في الأرض، سواء في الجزائر أو في أماكن أخرى، فيمكنك أن تشير إلي. لم أقرر بعد، لكن لديّ أفكار لأغادر. أنا وحدي في المنزل». ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى وصلت الإجابات. لدهشة توسان لومينو، أحضر ساعي البريد إلى لا فرومنتيير كتيبات وصحف ونشرات ومغلفات كبيرة لم يسخر منها أندريه، كما فعل كلّ من روزيل وماتوران. قال الأب ضاحكًا، لأنه لا يشك في أندريه:

- لم تدخل أيّ ورقةٍ إلى لا فرومنتيير منذ أسابيع قبل عودتك يا دريو. لا ألومك، لأنه من دواعي سروري القراءة، لكن بالنسبة لي فهذا من شأنه أن يتعب روحي.

فقط في أيّام الآحاد يعاني بعض الشيء من نهم ابنه الشديد للقراءة والكتابة، ففي ذلك اليوم، بعد صلاة المساء، يأتي ومعه بعض رفاقه القدامى، ابن غلوريو من أرض أيمون

أو ابن بيبيه من لا بينسونيير، ويذهبون معاً للتجوّل في حقول لا فرومنتيير. يصعدون وينزلون عبر الممرّات المليئة بالعشب، الواحد بجانب الآخر، ويتفقّدون كلّ شيءٍ معبرين بإيماءاتٍ من أكتافهم أو حواجبهم، ومتبادلين الكلمات النادرة المتمحورة حول الموضوع نفسه: الغلال الحاضرة أو المستقبلية، جيّدة أو متوسّطة، مهدّدة أو محفوظة. في فصل الشتاء هذا جرى فحص الأراضي المحروثة وسنابل القمح الشابة والأطراف المزروعة بالفِصفصة. وأسرّ توسان لومينو، الذي فشل في اصطحاب أندريه معه، إلى مرابع أرض آيمون أو لا بينسونيير، واقفاً في نفس الشعاع الدافئ عند زاوية غرفة:

- كما ترى، فإنّ ابني أندريه من جنسٍ لم أعرفه بعد ولا يشبهنا. ليس الأمر أنّه يحتقر العمل بالأرض، بل على العكس من ذلك تماماً، فهو يحبّها، وليس لديّ أيّ شكوى على عمله الأسبوعي. لكن منذ عاد من الخدمة العسكرية وباله في القراءة كلّ أحد.

أيضاً بدت روزيل مندهشةً في بعض الأحيان، فقد كان لديها الكثير لتفعله في المنزل للاهتمام بعمل أو متعة الآخرين. وبما أنّها مسؤولة عن الأعمال المنزليّة، ومثقلة بآلاف الاهتمامات في المزرعة، بالكاد رأت أندريه إلا في أوقات الوجبات وأمام الشهود. في مثل هذه اللحظات يغدو أندريه في العادة مبتهجاً وخالياً من الهموم، إمّا بجهدٍ من إرادته أو لأن الشباب أقوى من الملل ويطالبه بعيش ساعته.

أحبّ مزاح روزيل وحاول إضحاكها، ومع ذلك، ولأنّها كانت أنثى وتعاني، فقد امتلكت موهبة تخمين معاناة الآخرين. ومن خلال إشاراتٍ بسيطة للغاية، وفي تحديقها الثابت في أعلى زجاجات النافذة، وأيضاً بكلمتين أو ثلاث كلماتٍ من الممكن تفسيرها بطريقةٍ أخرى، أدركت روحها الرقيقة أن أندريه ليس سعيداً تماماً، وهو ما كان يؤلمها دون أن تعرف المزيد، لكنّها كانت بعيدة تماماً عن الشك في المحنة التي يمرّ بها شقيقها، والمشروع الذي يفكّر فيه.

واحدٌ فقط من شهود الحياة هؤلاء قد ولج أهداف أندريه: إنّه ماتوران، فهذا الأخير لاحظ حزن أندريه المتزايد وجهوده غير المجدية لاستعادة توازن المزاج القديم والهمة الهادئة في العمل اليومي، وفي بعض الأحيان تبعه إلى الحقول، كما شاهد من المنزل مراراً وصول ساعي البريد وتسلّيمه الرسائل والأوراق الموجّهة إلى شقيقه. بقيت أدق التفاصيل محفورة في ذاكرته المتأصلة، وخرجت ذات يوم على شكل سؤال طرحه بحذرٍ وبلا مبالاةٍ مصطنعة. كان يعلم، على سبيل المثال، أن معظم الرسائل التي تلقاها أندريه تحمل طابع الجزائر، وبعضها الآخر طابع أنتويرب. وبما أن هذا الاسم الأخير لا يعرف ماتوران عنه شيئًا، فقد فسّر له أندريه:

- إنها ميناءٌ كبير في بلجيكا، أكبر من نانت حيث مررت من قبل.

- كيف يمكنك التعرف على أشخاص بعيدين عنا وبعيدين حتى عن إفريقيا؟

- الأمر بسيطٌ للغاية. أضاف الأخ الأصغر. إنّ صديقي المفضّل أثناء إقامتي في الجزائر هو بلجيكيٌ من الفيلق الأجنبي، وعائلته بكاملها من مدينة أنتويرب. أحياناً يكتب ديمولديه لي، وأحيانًا يكون الأبوان من يكتبان لي لإعطائي المعلومات التي أحتاجها...

- أخبارٌ عن أصدقائك إذاً؟

- لا، بل الأشياء التي تهمّني حول السفر والبلدان... أحد أبنائهما استقرّ في بلاد ما وراء البحار، في أمريكا، ويملك مزرعةً بحجم أبرشيّتنا.

- هل كان غنيّاً؟

- لا، بل أصبح كذلك.

لم يلح ماتوران، لكنّه استمرّ بالمراقبة وبإضافة القرائن إلى القرائن. وعندما ألقى أندريه كتيّباً عن الهجرة، وإعلاناً عن ملكيات للتنازل عنها أو بيعها، رفع ماتوران الملاءة وحاول العثور على الأماكن التي تجعد فيها حاجبا شقيقه، وحيث عبر عيني الأخ الأصغر شيءٌ مثل ابتسامة، أو رغبةٍ أو الإرادة.

ومن دليلٍ إلى دليل خلُص إلى قناعةٍ مفادها أنّ دريو يخطّط لمغادرة لا فرومنتيير، متى؟ إلى أيّ بلدٍ بعيد، حيث تحصيل الثروة أمر سهل؟ تلك كانت أموراً غامضةً أمامه، ولأجل ذلك، في هذا الشهر من كانون الثاني حيث تتزايد المحادثات الثنائيّة بسبب العواصف أيّام الثلج والمطر،

وعندما يمسي بمفرده مع أندريه في الإسطبل أو في المنزل، سيقول له بشكلٍ مباغت:

- حدّثني عن إفريقيا يا دريو، احكِ لي قصص أولئك الذين غدوا أثرياء. يهمني أن أسمعك تتحدّث عنهم.

وفي مرّةٍ أخرى سيقول:

- لا بدّ أن لا فرومنتيير تبدو بالنسبة لك، أنت الذي تقرأ وتكتب، فقيرةً وصغيرة. تماماً، فهي لم تعد تعطي كما كانت في السابق.

لم يعد ماتوران يشك في ذلك، في وقت كان دريو ما يزال يشك.

وانتهى العام على هذا النحو.

بدأ عامٌ جديد، كان شتاؤه ممطراً لكنّه يتجمّد كلّ ليلة. في الصباح تبدو خيوط العنكبوت متدلّية من كتلةٍ إلى أخرى مغطّاة بالضباب الجليدي، وتحرّكها الريح كالأجنحة البيضاء. أمّا الأرض فتدخّن في الشمس المتأخّرة، فتصبح الأجنحة البيضاء باللون الرمادي. جرى إيقاف أكبر أشغال الريف، وقطع سكان المرتفعات بعض سيقان الأشجار أو استبدلوا الأسيجة. أمّا سكان الأهوار فلم يفعلوا شيئاً، فبالنسبة لهم جاءت العطلات. فاضت القنوات والخنادق، ولم تعد المزارع المغطاة بالمياه، كأنّها طافية فوقها، على اتصال فيما بينها أو بينها وبين البلدات إلا عن طريق الزوارق التي وضعت مجدّداً في الخدمة، والتي كانت تسير في جميع الاتجاهات فوق المروج

التي غمرتها المياه. لقد كان لقد كان الوقت الممتع للسهر والصيد.

ومع ذلك لم تكن الأرض صلبة لدرجة لا يمكن حرثها، وقرّر توسان لومينو، بناءً على نصيحة ماتوران، اقتلاع الكرمة التي تتكئ على لا فرومنتييز، والتي دمّرتها الفيلوكسيرا.

لذلك صعد المُرابع وأندريه إلى الحقل الصغير المكشوف ناحية الجنوب، على الارتفاع المعرّى الذي يقطع الطريق من شالان إلى فرومنتين. ورأوا أمامهم، دون أن يروا شيئاً آخر، سبعة أضلاعٍ من الكرمة القديمة بين أربعة أسيجةٍ من الجولق، وأرضاً مملوءةً بالحصى، ودوران شفرات طاحونتين هوائيّتين.

- اقتلع إحدى الأضلاع، سأقتلع المجاور. قال المرابع.

وعلى الرغم من البرد، ولأن العمل سيكون صعباً، خلعا معطفيهما وبدأا باقتلاع الكرمة. ظلّا طوال الطريق يتجاذبان أطراف الحديث بسعادةٍ عامرة، لكن بمجرّد بدئهما بالحفر تملّكهما الحزن وصمتا لئلا يتبادلا الأفكار التي ألهمت عملهما بالموت ونهاية الكرمة. وعندما قاوم أحد الجذور بشدّة، حاول الأب مرّتين أو ثلاث مرات تلطيف الأجواء ويقول: «كما ترى، كان هناك وقد واجه صعوبةً في الخروج» أو شيء من هذا القبيل، وهو ما تخلّى عنه بسرعة. لا هو ولا ابنه الذي يعمل بالقرب منه نجحا في طرد التفكير المؤلم بالزمن الذي ازدهرت فيه الكرمة، وذلك عندما كانت تعطي بوفرةٍ

النبيذ الأبيض الحامض والمزبد، والذي يُحتسى بسعادةٍ أيّام الأعياد الفائتة. إنّ المقارنة بين حالة أعماله السابقة وثروته المتواضعة اليوم أزعجته، فقد تثاقل حملها عليه، واشتبه في الأمر جيّداً حيال روح أندريه. وبصمتٍ رفعا وأهويا على الأرض بفأسهما العتيق والمصنوع خصّيصاً للأقوياء، فتطايرت الأرض على شكل شظايا، واهتزّ الجذع وسقطت بضع أوراق ذابلةٍ ظلّت معلّقة بالأغصان وأفلتت في مهبّ الريح مع فرقعة الزجاج المكسور، وبدت قاعدة الشجيرة كاملةً، قويّةً ومشوّهة، أعلاها مكسوّ بالطحالب الخضراء حيث تحفظ مياه الندى والأمطار في فصول الصيف البعيدة، وملتويةً في أسفلها ونحيلةً كمحلاق(6). لا يمكن إحصاء ندوب الأغصان التي قطعها قاطفو العنب. عمرُ هذه الكرمة لا أحد بإمكانه تذكّره، وفي كلّ عامٍ، ومنذ أن تعلّم أمور العناية بها، يعمل دريو على تقليم الكرمة وتعزيقها وقطف عنبها واحتساء نبيذها، وها هي قد ماتت. في كلّ مرّةٍ يضرب بها على محور الجذر، المنفصل عن الحياة بشكلٍ نهائي، يشعر بالألم؛ وفي كلّ مرّةٍ يمسك بهذا الخشب غير النافع من تاجها، غير المقلّم منذ عامين، ويرمي به فوق كومة السيقان الأخرى، يهزّ كتفيه بغيظٍ وغضب. ماتت الأوردة الكامنة التي من خلالها علت فرحة النبيذ الجديد للجميع! ماتت الأغصان الأم التي يحنيها ثقل العناقيد، والتي انحنى غصينها على الأرض وزحف كفستانٍ ذهبي! لن تجذب زهرة الكرمة مرّةً أخرى بعوضات الصيف بنجومها الباهتة وقطراتها العسليّة، ولن يفوح عبيرها، الشبيه بعبير البليحاء، في الريف وصولا إلى لا

فرومنتييرا لن يمرّر أبناء المزرعة الذين يأتونها أياديهم من خلال فتحات السياج لقطف عناقيدهم من طرفها! لن تأخذ النساء دلاء القطاف مرّةً أخرى قط! سيظلّ النبيذ لفترةٍ طويلةٍ نادراً في المزرعة، ولن يكون نبيذاً «منزليّاً». شيءٌ ما عائليّ، ثروة وراثيّة ومقدّسة هلكت مع الكرمة، خادمةٌ قديمة ووفيّة لعائلة لومينو.

كان لدى كليهما شعورٌ عميقٌ بهذه الخسارة، لدرجة أنّ الأب، مع حلول الظلام وعندما رفع فأسه للمرّة الأخيرة ليضعها على كتفه، لم يستطع أن يمنع نفسه من القول:

- ما قمنا به عملٌ سيئ يا دريو!

لكن ثمّة فرقٌ كبيرٌ بين حزن الأب وحزن الابن، فتوسان لومينو، وأثناء اقتلاعه للكرمة، كان فعليّاً يفكّر في اليوم الذي سيعيد فيه غرسها، ورأى في تأمّله الصامت والبطيء خليفته في لا فرومنتيير وهو يقطف الأعناب ويحتسي الموسكاديه من حقله المتجدّد؛ لقد امتلك هذا الحبّ القوي والمجرّب الذي يولد مجدّداً على أملٍ مع كلّ ضربةٍ من الشؤم. أمّا أندريه فالأمل لديه لم يتكلّم بذات الكلام لأنّ الحب بات ضعيفاً.

تابع الاثنان، المُسمرّان عند نهاية النهار، مسيرتهما على طول حافّة العشب، ومن ثمّ في منحدر الحقول التي تؤدّي إلى المزرعة. وبجسدٍ متألّمٍ ومنحنٍ إلى الأمام، والفأس على الكتف، كانا يحدّقان في الأفق المحمرّ فوق الأهوار والغيوم التي تدفعها الريح نحو الشمس الهاربة. كانت أمسيّة حزينة.

من حولهما أراضٍ بور، أراضٍ جرداء، سياجاتٌ محطّمة، أشجارٌ عارية، وعتمةٌ وبردٌ يهبطان من السماء. قطعا مئتي مترٍ قبل أن يتّخذ الابن قراره في الكلام، كما لو أن الإجابة ستكون صعبةً للغاية بالنسبة للأب الذي كان يتابع نفس مسار العمل، فقال:

- صحيح، لقد انتهى عمر الكرمة في مناطقنا، لكنّها ستنمو في مكان آخر.

- أين ذلك إذاً يا دريو؟

وفي شبه الظلمة مدّ الابن يده الطليقة فوق لا فرومنتيير الغارقة في الظلمة بالأسفل، وذهبت إشارتها بعيداً، إلى ما وراء الأهوار وما وراء فونديه، بحيث شعر توسان لومينو ببرد الرياح تحت ملابسه الصوفيّة الخشنة، وقال:

- في البلدان الأخرى؟ ما الذي يهمّنا طالما أنّنا نعيش في بلادنا يا دريو؟

هل فهم الابن الحنان القلق من هذه الكلمات؟ أجاب:

- من الصعب أن نعيش في بلدنا لفترةٍ أطول.

وتذكّر توسان لومينو الكلمات المشابهة تقريباً التي قالها فرانسوا فيما مضى، وظلّ صامتاً يحاول أن يشرح لنفسه كيف بإمكان أندريه تكرارها، وهو الذي ليس بكسولٍ ولا يميل إلى المدن.

وأمام الرجلين اللذين ينزلان نحو أطراف الأراضي البنيّة،

تجلّت لا فرومنتييير بأشجارها كقبّةٍ من الظلام الكثيف، ومن فوقها أضاءت ليلة الشتاء نجومها الأولى. عادةً لا يدخل المرابع ذاك الظلّ المقدّس لداره دون تأثّر، ولكن في هذا المساء، الأفضل مما هو معتاد، شعر بحلاوة العودة التي تشبه قسم الحب. وعند سماعها صوت خطواتٍ مقتربة، فتحت روزيل الباب وأضاءت المصباح في الخارج كلافتة.

- لقد عدتما متأخّرين! قالت لهما.

لم يكادا يجيبان حتى سمع صدى صوتٍ ممتدٌّ لبوقٍ في قاع الأهوار، بعيداً عن سالِرتِن.

- إنّه بوق لا سوليييرا صاح صوت ماتوران من طرف الغرفة.

ودخل الرجلان في الضوء الدافئ للموقد، وأعيد المصباح الصغير إلى الطاولة، واستأنف ماتوران:

- ثمّة سهرة أقيمت هذا المساء في لا سوليييرا هل تودّ الذهاب يا دريو؟

وكان العاجز، بذراعيه المسترخيتين على الطاولة والمنفعلتين بحركةٍ عصبية، والذي كان نصف ناهضٍ وعيناه مضطرمتان برغبةٍ ظلّت كامنة لفترةٍ طويلةٍ وانفجرت أخيراً، يتألّم خائفاً من رؤية محل أولئك الذين تداعى بسببهم.

- لستُ في مزاجٍ مناسبٍ للرقص، لكن ربّما يغدو ذلك مفيداً لي اليوم. أجاب أندريه باستهتار.

وبصمتٍ وضع المرابع يده على كتف بكره التعيس، فأشاحت العيون المحمومة أنظارها، وأطاع الجسد وارتمى ككيسٍ من القمح فوق مقعدٍ تتسع قماشته كلّما لامس الأرض.

تناول الرجال عشاءهم بسرعة، ومع اقتراب نهاية المائدة أراد توسان لومينو، والذي كان عقله يفكّر فيما قاله له أندريه، أن يستدعي للشهادة أحد أبنائه الذي لم يتغيّر أبداً حبّه الكلّي للا فرومنتيير، وقال:

- هل تصدّق أن دريو لم يكن عقلانيّاً هذا المساء يا ماتوران؟ لقد ادّعى أنّ الكرمة انتهى زمنها لدينا، وأنّها تنمو بشكلٍ أفضل في مكانٍ آخر. لكن عندما تُزرع الكرمة فمن المعروف أنّها ستموت في يومٍ ما، أليس كذلك؟

- مات الكثير قبلنا، ولسنا أكثر بؤساً من الجيران. قال العاجز بخشونة.

- هذا ما أقوله بالضبط. أجاب أندريه، ورفع رأسه ولوحظت عيناه اللتان يحركهما الاعتراض، وشارباه الرفيعان اللذان يهتزان أثناء كلامه. ليست كرمتنا وحدها هي البالية، إنّها الأرض، أرضنا، أرض الجيران، أرض البلاد، وأيضاً أبعد وأبعد ممّا كنتم عليه في وقتٍ مضى. سنحتاج إلى أراضٍ جديدةٍ لزراعة محاصيل جديدة.

- أراضٍ جديدة! لم أعرف أيّ واحدةٍ هنا من قبل، جميعها جرى حرثها.

- ولكن هناك الكثير منها، وفي بلدان عديدة...

وأحجم للحظةٍ عن الكلام، ومن ثمّ تابع بعجلةٍ شديدة:

- في أمريكا، في الكاب، في أستراليا، في الجزر، بين الإنكليز. كلّ شيءٍ ينمو في تلك البلدان، وتفرح الأرض بالعطاء فيما أراضينا...

- لا تقل شيئاً سيّئاً يا دريو، فهي تستحقّ الأفضل!

- لكنّها بالية، مرتفعة التكاليف!

- مرتفعة التكاليف، أجل بعض الشيء، لكن أعطها بعض الأسمدة وسترى!

- أعطوها أنتم إذاً! ليس لديكم ما يكفي لشرائها!

- فلتأت فقط سنة جيّدة، لا شديدة الجفاف ولا شديدة الرطوبة، وسنمسي أغنياء!

وانتصب المرابع كما لو أنّه تعرّض لإهانةٍ شخصيّة، وانتظر ردّ دريو، فوقف هذا الأخير محمولاً بالعاطفة. كان الجميع ينظرون إليه، حتى العامل في المزرعة الذي كان يحاول أن يفهم وذقنه مشدودة في يده المتصلبة، وشعروا جميعًا بشكل غامض، من هدوء حركته وسهولة حديثه، أن دريو لم يعد مثلهم تمامًا.

- أجل. قال الشاب متفاخراً بإنصاتهم إليه. قد يكون هناك شيءٌ يمكن القيام به في هذه البلاد الواهنة، لكنّها لا تعلّم في مدارسنا: إنّها في غاية الأهميّة. ومن ثمّ تأتي الضريبة باهظة والإيجارات مرتفعة للغاية. لذلك بينما نعيش الظروف البائسة

هنا، تراهم يحصدون أجمل المحاصيل هناك. كلّ هذا أتعلّمه بشكلٍ يومي. كرومنا تموت وهم لديهم النبيذ، والحنطة تنمو في منازلهم بدون سماد ويرسلونها إلينا في سفنٍ محمّلة بالحبوب مثلما كانت في عليّة القصر القديم هنا، وهذا حسب قولكم.

- محض خداعات! أتقرأ ذلك في الكتب!

- بعض الشيء، لكنّني أيضاً رأيت سفناً في الموانئ وأكياس الحنطة تتدفّق من جوانبها كما تتدفّق مياه القنوات فوق المنحدرات. إذا قرأتم الصحف فستعرفون أن كلّ شيءٍ يأتي إلينا من الخارج، وبتكلفةٍ أقلّ ممّا يمكننا إنتاجه: القمح والشوفان، الخيول والثيران، وأن هناك قبالتنا الأمريكيين والأستراليين، وسيكون هناك اليابانيون والصينيون عمّا قريب...

وكان مبتهجاً بالكلمات، والتي ليست سوى صدى لبعض القراءات التي قرأها أو لمحادثاتٍ جرت أمامه. استمعت إليه لا فرومنتيير بذهول: الصين، اليابان، أمريكا، هذه الأسماء طارت حول الغرفة مثل الطيور المجهولة التي جلبتها العاصفة من مناطق بعيدة. سمعت جدران بيت المزرعة كلّ كلمات لغة الفلاحين، لكنها لم تُصدم بهذه المصطلحات الأجنبية فيما مضى. كانت الدهشة ملحوظة على جميع الوجوه التي أضاءها المصباح ورُفعت نحو دريو الذي أكمل:

- تعلّمت بعض الأشياء وما زلت أتعلّم كلّ يوم! اسمعوا،

عندما يعود المرء لاقتلاع الكرمة مثلي، فحتماً هذا سيجعله يعتقد أنّ هناك دولاً في أمريكا، ويمكنني أن أخبركم بأسمائها، حيث يمكنه الذهاب دون أن يفك صرّة نقوده...

- لنذهب إذاً! صاح الخادم.

- أجل، الحكومة تدفع لوصول مزارع، تطعمه عند وصوله وتعطيه ثلاثين هكتاراً من الأرض كي يستقر...

هذه المرة أومأ الأب برأسه متجرداً من فداحة التأكيد، وقال بازدراء:

- أنت تكذب يا فتى. ثلاثون هكتاراً تعني ستّون جورنال(5). صحيحٌ أنّني لا أقرأ كثيراً، لكنّني لن أسمح لنفسي بسرد كلّ القصص التي تعتقد أنّها بمقام الإنجيل. ستّون جورنال! ستفلس الحكومات بسرعةٍ بحال قدّمت هكذا هديّة لكلّ من يريدها... اخرس... يؤلمني سماع حديثٍ سيّئٍ عن أرضنا... بما أنك تريد زراعتها معي يا دريو، فافعل كما نفعل ولا تقل شيئًا سيئًا... لقد ظلّت تطعمنا على الدوام.

وخيّم صمتٌ محرجٌ استغلّه الخادم للنهوض والذهاب إلى سريره. وتردّد نداء لا سوليير في الليل مرّة أخرى، فلم يتفوّه ماتوران بكلمةٍ واحدةٍ بل نظر إلى أخيه. هذا الأخير، والذي بدا غير راضٍ ومنفعلاً جراء المناقشة التي حدثت للتو، فهم السؤال الصامت وأجاب بحيويّة، بطريقةٍ تُشعر المرء أنّ إرادته حرّة:

- حسناً! أريد ذلك!

- سآخذك إلى الزورق! قال العاجز.

وخمّن توسان لومينو أنّ ثمّة خطراً هناك، فقال:

- من الصعب على أخيك الذهاب إلى لا سوليير، ولكن بأيّ حالٍ من الأحوال، لن يكون من المناسب لك السهر هناك يا صديقي المسكين، فالجو باردٌ في الخارج... لا تذهب أبعد من مرج البطّ، وعد بسرعة.

وتبع بعينيه العاجز الذي نهض على عكّازيه بعجلةٍ كبيرةٍ وبطاقةٍ إضافيّةٍ أعطته هذه المشاعر، وتجنّب الطاولة ونزل على الدرج، ومن وراء أندريه غاص في الليل.

كان الأبناء في الخارج، وكانت الرياح الجليديّة تهبّ من خلال الباب الذي تُرك مفتوحاً. واحسرتاه! يا لصعوبة سلطة المنزل! جالساً على المقعد، ورأسه مستلقٍ على مرفقٍ واحدٍ ومتأمّلاً في ظلّ الفناء، فكّر المزارع في الأشياء التي سمعها هذا المساء، والعجز الذي بات عليه على الرغم من حنانه وتجربته الطويلة في فرض طاعته، بمجرّد أنّ الأمر لم يعد متعلّقاً بعمل المزارع. لكنّه لم يضيّع وقتاً طويلاً دون أن يسأل ابنته المقفلة على نفسها في مكب النفايات المجاور. – إنّ أدنى كلمةٍ تُسمع بشكلٍ واضحٍ في الغرف الفارغة.

- روزيل؟

فتحت الصغيرة الباب وتقدمت إلى الأمام قليلاً ممسكةً بصحنٍ أجوف مسحته دون أن تنظر إليه.

- أخشى أن يعود ماتوران لرؤيتها...

- أوه! أبي، لم يكن ليفعل ذلك... عدا عن أنّه لم يرتدِ نعله على الأرجح، وبالتالي لن يجرؤ على الظهور في لا سوليير...

وانحنت ونظرت تحت سرير ماتوران ومن ثمّ في الخزانة، ونهضت قائلة:

- أجل... لقد أخذه... لبسه مسبقاً... فأوّل صوتٍ للبوق دوى حوالي الساعة السادسة.

وشرع الأب بالمشي بخطى كبيرة، وكان يتوقّف قلقاً كلّ دقيقةٍ لسماع ما إذا كان صوت احتكاك العكازات بالحصى لم يعلن بعد عودة ماتوران.

---

(6)أو الحالق، وهو عضو نباتي ذو شكل لولبي تستعمله بعض أنواع النباتات المتسلقة للتعلق على دعامة، حائط أو صخرة أو حتى نبتة أخرى أو شجرة (المترجم).

(5)جورنال: وقدة قياس قديمة خاصّة بمقاسات الأراضي (المترجم).

X

سهرة لا سولييز

فُتح الباب بصخبٍ عالٍ، وعلى العتبة المضاءة بالوهج الساطع للمصابيح ظهر توسان لومينو. عادةً ما لا يحدث دخول عائدٍ أثراً كبيراً. فجأةً هدأت الضوضاء، وأفسحت الفتيات الفزعات الطريق واصطففن على شكل مجموعاتٍ على طول الجدران، ومن الدهشة نزع العديد من الشبّان قبّعاتهم التي كانوا قد احتفظوا بها لأجل الرقص، واستوى المرابعون فوق الكراسي التي يجلسون عليها. تردّد الجمع في التعرّف على الوافد الجديد في مثل هذه الساعة وفي هذا المكان. أمّا هو، المصعوق فجأةً من الأجواء الحارة والمرهقة والحمراء ولكنّه فخورٌ بالدهشة التي أحدثها، ومنتصباً على عكّازيه وضاحكاً في لحيته الصهباء، فقال بصوتٍ عالٍ:

- مرحباً للجميع!

ومن ثمّ خاطب النساء المتجمّعات اللائي كنّ منحنيات في مؤخّرة الغرفة ويثرثرن:

- من منكنّ تودّ أن ترقص رقصة الآن درو(8) معي؟ ... لمَ تنظرن إليّ على هذا النحو؟ أنا لم أعد، بل رافقت أخي دريو الوسيم لتقابلنه وجهاً لوجه.

وشوهد وهو يتقدّم ومن خلفه أصغر أبناء لا فرومنتييز، الطويل والنحيف، واضعاً يده على جبينه ويحيي بطريقةٍ

عسكريّة. عندئذٍ حدثت في الغرفة بكاملها ضوضاء من الضحكات والأسئلة والتحيّات، واندفعت الراقصات نحوهما بسرعة إفساحهنّ من قبل، وامتدّت أيادي الرجال من كافّة الجوانب. وساد الصخب الرنّان لصوت غوفري العجوز على هذه الجلبة، ففي عمق الغرفة الثانية صرخ ثملاً بعض الشيء بمفعول النبيذ:

- أجمل فتاة لترقص مع ماتوران! أجمل فتاة! لتظهر نفسها!

لم يكن اقتراب فليسيتيه غوفري للأمام بدافع طاعة والدها، بل لإدراكها، وهي مرتبكة جراء هذا الدخول المفاجئ وهذا ما لاحظه الرجال والنساء، أنّ عليها دفع الثمن، ومقتربة من ماتوران لومينو وعيناها السوداوان في عينيه، ألقت ذراعيها حول عنقه وعانقته، ومن ثمّ قالت:

- عانقته لأنّه شجاعٌ أكثر من نصف رجال الأبرشيّة. أنا من دعاه!

ذُهِل ماتوران، وقد أسكرته كلّ الذكريات التي استيقظت بداخله، وابتعد مرّةً أخرى، وشوهد شاحباً وهو يشقّ طريقه، منحنياً على عكّازيه، بين مجموعة الرجال ناحية يسراه قائلاً:

- مكان، مكان يا رفاق، أريد الجلوس!

وجلس في الغرفة الثانية إلى جانب العديد من كبار السنّ، بمن فيهم غوفري العجوز الذي تنحّى جانباً وسكب له كأساً كاملاً من نبيذ سالِرتِن الأبيض كإشارة أوّليّة على الترحيب به.

ووفقاً للعرف والتقليد العريق رفع الكأس، فيما ما زال شاحباً، وقال:

- لأجلكم جميعاً، أشرب من القلب والحب!

وسرعان ما بات منسيّاً واستؤنف الرقص.

أمّا هذه المزرعة حيث يسهر الناس فيها، وهي واحدة من أحدث مزارع الأهوار، فقد قسّمت إلى غرفتين غير متساويتين. في الصغرى ثمّة عددٌ قليلٌ من الرجال، المنسحبين من ملذّات الرقص الصاخبة، يشربون ويلعبون لعبة أوراق البقرة(7) مع سيّد المنزل؛ وفي الأخرى حيث دخل الأخوان لومينو فكانت تجري وصلات الرقص. بينما كانت الطاولات مرتّبة على طول الجدران بين الأسرّة، وستائرها المرفوعة خوفاً من التمزيق فمفروشة على نقاطٍ قصيرة. وحول الموقد، وقبالة نارٍ من الروث الجاف – خشب هذا البلد الخالي من الأشجار – تربّعت نصف دزينةٍ من ربّات البيوت اللواتي رافقن بناتهنّ، وعلى لوح الموقد كان لكلّ منهنّ فنجانها، بحيث شربت القهوة الممزوجة بالبراندي برشفاتٍ صغيرة. وفي الخلفيّة تضيء مصابيح الزيت الموضوعة في كلّ مكانٍ مجموعات الراقصين. بدا كلّ شيءٍ ضيّقاً، وملأ الجو الدخاني ورائحة العرق والنبيذ المنزل. في وقتٍ كان الهواء الجليدي في الخارج يصفر عبر قاع الباب وفي بعض الأحيان يسبب الرجفة للماريشيات تحت فساتينهنّ الصوفيّة الثقيلة، لكن ذلك لم يكن بمهم، ففي الغرفة فيضٌ من الضحكات والمحادثات والحركة. شبّانٌ

وشاباتٌ يأتون من مزارع منعزلة تسدّها الفيضانات الموسميّة وقد سئموا الراحة والأحلام، وثمّة عاطفة أثارت هؤلاء المنعزلين الذين نجوا لوقتٍ قصيرٍ وعادوا للحياة المشتركة. بعد قليلٍ ستتلاشى هذه السعادة بكاملها فوق مفرش المائدة الكبير والمرتعش والصامت، وهو ما كانوا يعرفونه، لذا استغلّوا الساعة القصيرة.

لذلك بدأت وصلات الرقص مرّةً أخرى، أحياناً الرقصة الماريشيّة التي كانت رقصةً لأربعة أشخاص، نوعٌ من رقصات البوريه القديمة يرافقها المتعاونون بطنينٍ إيقاعي، وأحياناً رقصات الآن درو مغنّاة بصوتٍ ذكوري أو أنثوي وترافقها موسيقا أكورديون يعزفها صبيّ أحدبٌ وهزيلٌ في الثانية عشرة من عمره؛ وأحياناً أخرى رقصاتٌ عصريّة مثل الكادريل أو البولكا، والتي لم يكن لها سوى لحن واحدٍ تتنوّع قياساته فقط. رقصت معظم الفتيات الصغيرات بشكلٍ جيد، وقليل منهنّ يتمتّعن بإحساسٍ قوي بالإيقاع والسلوك. وحول خصورهنّ كانت الأكثر حذراً والأكثر تأنّقاً منهنّ قد ربطت منديلاً أبيض لئلا يفسد الراقص نسيج الفستان عندما يقوم بعد كلّ أغنيةٍ بحمل راقصته بطرف ذراعه ويرفعها لأعلى من أجل إظهار قوّة الماريشيين وخفّة الماريشيّات. يلتقي أناسٌ من نفس الأبرشيّة ونفس المنطقة، يواصلون سيَر الشتاء الماضي ويتحدّثون عن الحبّ لأوّل مرّة، ويعطون مواعيد لقاءاتٍ في سوق شالان أو في إحدى الأمسيات القريبة في مزرعةٍ أخرى، كما يظهر أيضاً الوافدون الجدد، ومن بين

هؤلاء كان أندريه لومينو أكثر المطلوبين، الأكثر بهجةً الأقل إحراجاً حيال تلفيق الدعابات وقولها.

مرّت الساعات، واجتاز غوفري الأب الغرفتين مرتين فاتحاً الباب ومصرّحاً:

- لقد بزغ القمر وسيبدو مرئياً بعد قليل، والريح هبّت وهي شديدة البرودة.

ومن ثمّ يعود ليأخذ مكانه حول الطاولة حيث كان لاعبو البقرة ينتظرونه بين خزانتين. وافق ماتوران لومينو على اللعب، لكنّه لعب شارد الذهن ولم يكن ينظر إلى أوراقه بقدر ما كان يراقب تحرّكات وكلمات وإيماءات فليسيتيه غوفري. وبالفعل، بين عدّة جولات، توقفت الفتاة الفطنة والرائعة مع راقصها في الغرفة الثانية لتبادل بضع كلمات مع ماتوران. كانت مبتهجةً بفخر، وعلى وجهها الجريء المنتظم، الذي ساد على معظم قبعات التول، حملت فرحة انتصارها، لأنه وبعد ست سنوات استمر جنون الحب الذي ألهمها وأعاد إليها أبناء لا فرومنتييير.

كانت الساعة العاشرة، وصدحت ماريشيّة شابّة، ذات وجهٍ خمريّ كريش طائر السمنة، بالنوتات الأولى من أغنية الرقصة:

وحينما كنتُ لدى أبي صغيرة في المنزل

ذهبتُ للنافورة

لأقطف الجرجير.

ومن ثمّ عشرون صوتاً شبابيّاً والعديد من الأصوات الأنثويّة استأنفت في الكورس:

البطات، البطات، فراخ البط

بطات أبي في الأهوار تروح!

ودارت الرقصة بين الغرفتين. في هذه اللحظة اقتربت فليسيتيه غوفري، التي رفضت أخذ مكانها بين حلقة الراقصين، من الطاولة حيث يجلس ماتوران، فقام الأخير على الفور برمي أوراقه على أحد جيرانه ووقف على عكّازيه.

- ابق جالساً يا ماتوران. قالت فليسيتيه. لا تنزعج منّي: جئت لرؤيتهم يرقصون.

لكنّها أحضرت كرسيّاً من زاوية الغرفة وساعدت ماتوران على القعود عليه، وجلست هي نفسها بجانبه. كانا جالسين في الظلّ الخفيف الذي تلقيه الخزانة، لم ينظر العاجز إلى فليسيتيه غوفري، وبدورها لم تعد تنظرُ إليه بعد الآن. كانا جنباً إلى جنبٍ قبالة الخزانة المصنوعة من خشب الكرز، وبدت أعينهما مهتمّة بهؤلاء الراقصين الذين أتوا ودخلوا الغرفة. لكن ما رأياه كان شيئاً مختلفاً تماماً: الأوّل رأى الماضي، مواعيد الحب، العهد المتبادل، العودة من شالان في العربة، المعاناة الرهيبة التي استمرّت لسنوات، الهجر الذي انتهى في هذه اللحظة بالذات؛ أمّا الأخرى فرأت المستقبل المحتمل وربّما القريب، غرف لا فرومنتيير التي ستحكمها،

مقعد الكنيسة حيث سشكلّل يوم الأحد، هتافات الوداع التي ستتلقّاها من الفتيات الأكثر تفاخراً في البلاد، والزوج الذي ستحصل عليه، أندريه أصغر أبناء لومينو، والذي يقود الرقصة هنا مع فتاةٍ في الخامسة عشرة من عمرها، تلك التي غنّت الأغاني.

تحدّث ماتوران بصوتٍ خفيض، بكلماتٍ قليلة، أنّ المشاعر تقطع الصمت، وبدا شاحباً، وخشي أن تكون لحظة السعادة هذه قد ولّت بالفعل. فما كان من ابنة لا سوليير، الواضعة يديها على مئزرها والرزينة المتحفّظة، إلا أن أجابت دون تسرّعٍ بعباراتٍ لم يسمعها أحد. تحوّلت عيونٌ كثيرةٌ نحو الزوجين الغريبين اللذين كانا خطيبين ذات يوم، وكانت الرقصة تدور، والغناء يرنّ الجدران.

غنى الصوت الصافي والمضحك للماريشيّة الصغيرة:

النافورة عميقة

تتدفّق في القاع

على طول الطريق

يمرّ ثلاثة فرسانٍ بارونيون

«ماذا ستعطيني أيّتها البهيّة

وكيف أجذبُكِ إلي؟

فقالت: خذني

وبعد ذلك سنرى».

عندما انجذبت إليّ البهيّة

ذهبت إلى المنزل

وجلست على النافذة

وغنّت أغنية.

ليس هذا أيّتها البهيّة

ما طلبته منك:

إنّها محبّتكِ

إن كنتُ أستحقّها».

وأصبحت الرقصة مفعمة بالحياة أكثر فأكثر. حمل الشبّان الماريشيّون الفتيات الشابات من خصورهنّ وجعلوهنّ يقفزن عالياً لدرجة كادت قبّعات الموسلّين تلامس السقف. شربت ربّات البيوت فنجاناً أخيراً من القهوة، وشاهد لاعبو البقرة رقصة السربندة تثير بحركاتها الغبار، في الضوء غير المتساوي للمصابيح المدخّنة. ما زال ماتوران وفليسيتيه القريبان من بعضهما البعض يتبادلان أطراف الحديث، لكن فتاة لا سوليير تركت إحدى يديها بين يدي العاجز، فبدت اليدان المكسوّتان بالشعر وغير المتناسقتين ترتجفان، وبدت اليد البيضاء الصغيرة أنّها لم تستوعب أو أنّها لا تريد الإجابة.

وانتهت الرقصة كالتالي:

«وقالت: مُحبّتي

ليست للبارونات

بل للصبي بيير

خادم المنزل».

نظرت فليسيتيه لأوّل مرّةٍ إلى ماتوران وقالت مبتسمةً بنبرة ثقة:

- تلك الأغنية هي قصّة روزيل.

- ألا تعرفين ما الذي أرادته؟ أجاب ماتوران بحدّة. أرادت أن تتزوّج خادمنا وتصبح سيّدة لا فرومنتييز. لكنّني كنت أراقبهما! لقد طردتُ جان نيسمي، وأقسم لك أنّه لن يعود إلى المنزل قريباً. في الوقت الحالي...

وأخفض صوته ومال نحوها، ولامس طرف شعره الثعلبي رأس القبعة البيضاء التي لم تتراجع للخلف:

- في الوقت الحالي، بحال ما زلت ترغبين بي يا فليسيتيه، فستكونين سيّدة لا فرومنتييز!

لم يكن لديها الوقت لصياغة الإجابة، ووجدت نفسها واقفة. انتهت آخر أغاني الرقصة بهمسٍ من الدهشة، ودخل رجلٌ وتقدّم نحو وسط الغرفة الأولى، واجتاز المجموعات برأسه الأبيض المرتدي لقبّعةٍ لم يلمسها بأصابعه عند دخوله. بدت ملابسه مغطّاة بالجليد، وعلى يده اليسرى يتدلّى معطف قديم عبارة عن خرقةٍ بنيّة اللون. وبوجه ملامحه

صارمة، وعينيه نصف المغمضتين بسبب توهّج الأنوار، بدا كأنّه يبحث عن شخصٍ ما. أفسح الجميع الطريق لمرابع لا فرومنتيير.

- هل أبنائي هنا؟ قال المرابع.

- أجل! أنا هنا يا أبي! أجابه صوت من خلفه.

- حسناً يا دريو. قال الرجل العجوز دون أن يلتفت. لستُ قلقاً عليك، رغم أنّ هذا المكان ليس لأبنائي، لكن في الحقيقة الطقس متجمّدٌ لدرجة الاعتقاد أن كل الأهوار ستؤخذ قبل شروق الشمس، وربّما يموت ماتوران أو يمرض على هذه الحال! لم اصطحبته معك؟

وفي صمت الجميع أجال المرابع نظره حول الغرفة الكبيرة، ودلّه بعض الراقصون بحركةٍ نحو ماتوران الموجود في الغرفة المجاورة. رأى الأبُ ابنه العاجز وبالقرب منه تلك التي كانت السبب في الكثير من المعاناة والدموع.

- الفاجرة! همهم الأب. ما زالت تغويه!

واقتحم المجموعات بقوّة، وكتفاه يدفعان الراقصين يميناً ويساراً.

- غرفري! قال وهو يهزّ رأسه محيياً الرجل الواقف وتعثّر بترنّحه. لم أقم بهذا لإزعاجِك يا غوفري، لكنّني سآخذ أبنائي، فالموت يسود الأهوار في أوقات كهذه.

- لا يمكنني منع أبنائك من المجيء. همهم غوفري. أؤكّد

لك ذلك يا توسان لومينو.

ودون أن يستمع إليه رفع المرابع صوته قائلاً:

- أخرج من هنا يا ماتوران! وارتد هذه البطانيّة التي أحضرتها لك!

ورمى المعطف القديم الرث على أكتاف العاجز الذي نهض، دون أن ينبس ببنت شفةٍ، وتبع الأب كالطفل. ونظر الراقصون، بعضم ساخراً وبعضهم متأثّراً، إلى هذا العجوز الذي جاء عبر الأهوار بأكملها ليأخذ ابنه من سهرة لا سوليير. تهامست بعض الفتيات فيما بينهن: «ليس لديه كلمة واحدة لفليسيتيه»، وأخريات قلن: «لا بدّ أنّه كان وسيماً في شبابه». وكان هناك صوتٌ واحدٌ، صوت الصغيرة التي غنّت أثناء الرقص، يتمتم: «أندريه هو الصورة الكاملة لوالده».

لم يعر توسان لومينو ولا أبناؤه أيّ اهتمام. أُغلق باب لا سوليير خلفهم، وهبطوا فجأةً في الليل حيث تهب الرياح الجليديّة. ارتفعت الغيوم عالياً، ومحمولةً بمظهرٍ غير متناسقٍ وذائبة في كتلٍ كبيرة، شكّلت طبقات متدرّجة من العتمة ولوّن ضوء القمر حوافّها باللون الفضّي. اخترق البرد الثياب ومرّ من خلال الجلد، ومرّ الموت للضعفاء. قام المرابع العارف بالخطر بفكّ زورقين من الزوارق الراسية في ميناء لا سوليير بأسرع وقتٍ ممكن، وركب الأوّل وأشار إلى ماتوران بالاستلقاء في قاعه وبالابتعاد. أطاع العاجز مرّةً أخرى، ومغلغلاً نفسه في أرضيّة الزورق ومتغطّياً بالمعطف الصوفي،

سرعان ما بدا بلا حراكٍ كأنّه قطعة طحالب بحريّة، ولكن دون أن يلاحظه أحد تمدّد موجّهاً رأسه نحو لا سوليير، وكان يتأمّل في المزرعة رافعاً الخرقة التي تحميه بإصبعٍ واحدة. وطالما سمحت له المسافة وضفاف القنوات بتمييز شعاع الضوء من الباب فقد بقيت عيناه مثبتتين على هذا الوهج الباهت الذي أعاد إليه الآن ذاكرة جديدة، ثم سقط المعطف وغطى وجهَ العاجز المرح والدامع. تبعه أندريه في مركب شراعي صغير آخر.

ومرّوا مرّةً أخرى من نفس الخنادق وعلى طول المروج نفسها، مجاهدين ضدّ عصف الريح التي تهبّ بقوّة. استعرت العاصفة ومنعت الجليد من الانتشار، ولم يحرز المرابع غير المعتاد على تجديف الزوارق تقدّماً كبيراً، ومن وقت لآخر يقول:

- ألا تشعر بالبرد الشديد يا ماتوران؟

وبصوتٍ أعلى قليلاً يقول:

- أأنت هنا يا أندريه؟

وفي أعقاب ذلك يجيبه صوتٌ شاب:

- أنا بخير!

كان تعبه شديداً، لكنّه ممزوجٌ بفرحة إعادة الابنين. ودون سبب واضحٍ، وعلى الرغم من مرور أسابيع دون التفكير بها، فكّر المرابع في هذه اللحظة بالأم لومينو، وتخيّل في نفسه:

«لا بدّ أنّها راضية عنّي لأنّني أخذتُ ماتوران من لا سوليير». وأحياناً اعتقد أنّه رأى حول منحنيات القنوات عيوناً زرقاء كعيون الأم العجوز التي تبتسم ومن ثمّ تنحني وتستلقي مع القصب تحت الزورق. عندئذٍ مسح جفنيه بكمّه، وارتعش ليبدّد الخدر الذي أصابه، وكرّر على أحد أبنائه:

- أأنت هنا؟

لم يكن الابن الثاني يحلم، بل يتأمّل فيما رآه وسمعه للتو، في شغف ماتوران الأخرق، في عنف هذا الرجل الذي سيجعل حياة مدير المزرعة في لا فرومنتيير صعبة عندما يرحل الأب. في ذلك المساء نما إغراء الأراضي الجديدة أكثر في ذهنه القلق.

ومع الوقت وصلت الزوارق إلى مرج البط.

---

(8)وردت في النص الأصلي عبارة la ronde، أي الرقصة الدائرية، ولكن بالعودة إلى التاريخ وجدنا أن المقصود في تعبير بازان هو رقصة ال An Dro (كلمة بريتانية معناها «الدائرة»)، وهي الرقصة الفولكلوريّة لشعوب البريتون، أي شعوب المنطقة التي تجري فيها الأحداث (المترجم).

(7)بالفرنسيّة Aluette وتعرف أيضاً La Vache، وهي لعبة ورق قديمة سهلة الاستخدام يتم لعبها على الساحل الغربي لفرنسا. يتم لعبها من قبل فريقين، يتكوّن كلّ فريقٍ عادة من

أربعة أشخاص وأحياناً من ستة. وقد جرى تسميتها بذلك لوجود بقرة على أوراقها (المترجم).

XI

حلم روزيل بالحب

بعد ظهر أيّام الآحاد تكون وقتها ساعات من العزلة بالنسبة لروزيل، وبإمكانها الذهاب إلى القرية وحضور صلاة الغروب بحال لازم الخادم المنزل، ومرّة كلّ أسبوعين يشترط الذهاب إلى سان جان دو مون، وذلك لزيارة شقيقته فينيت الصمّاء والبكماء. لم يعد ماتوران، والذي اعتاد البقاء في لا فرومنتيير طيلة أيّام حياته البائسة، يفوّت قدّاس سالِرتِن الكبير، وهناك يلتقي بفليسيتيه غوفري ويحييّها دون التحدّث إليها في غالب الأحيان لئلا يغضب المرابع، ويشاهدها وهي تمرّ من الساحة، وبعد وقتٍ قصيرٍ يجلس في النزل رفقة لاعبي البقرة. أمّا بالنسبة لأندريه فقد بدا أنّه لم يعد مرتبطاً بهذا المنزل في لا فرومنتيير، وفي أيّام الأحد، ما إن يتمكّن من ذلك، يفرّ ليجري عبر القرى القريبة من البحر مفضّلاً البحث عن البحارة القدامى والمسافرين الذين يتحدّثون عن البلاد حيث يمكن للمرء صناعة ثروته فيها.

لم تكن روزيل مدركة لما جذبه بعيداً. وذات مرّةٍ شكت له بلطفٍ أنّها تُركت وحدها، فضحك بادئ الأمر، وما لبثت ضحكته أن خمدت وقال:

- لا تتذمّري بحال تركتك وحدك يا روزيل، فربّما في يومٍ من الأيّام ستستفيدين من نزهاتي. أنا أعمل من أجلك.

وفي الأحد الرابع من يناير لازمت روزيل لا فرومنتيير، لكنها لم تشعر بالملل. كانت قد لاذت بالبيدر خلف المزرعة، عند كعب تلّة التبن الكبيرة، محوّلةً وجهها صوب الأهوار التي يمكن رؤيتها بين شجيرتين في السياج. كادت أن تجمّدها ريح الشمال، غير أنّ التبن حولها حافظ على الحرارة كما في العش. غرق رأس روزيل، وانغرس مرفقاها في الطبقة الليّنة من التبن التي شحِبت من الكومة دون أن تزال. كان بإمكانها رؤية الجوّ النقي للغاية، وبرج الكنيسة في بيرييه، والمزارع الأبعد، وصولاً إلى الأشرطة المحمرّة التي نادراً ما يكتشفها المرء، وفي الكثبان المكسوّة بأشجار الصنوبر التي يحدّها البحر على بعد أكثر من ثلاثة فراسخ. تأمّلت بهذه الطريقة، غير أنّ عقلها ذهب إلى ما هو أبعد من مرج الأب، إلى ما هو أبعد من الأهوار العظيمة، إلى ما هو أبعد من الأفق لأنّ جان نيسمي كتب لها.

كانت الرسالة، التي لمستها روزيل بأطراف أصابعها، في جيبها. منذ الصباح فهمت عن ظهر قلبٍ وتلت رسالة جان نيسمي لنفسها. لم تفارق الابتسامة شفتيها إلا عندما تعلو إلى عينيها. بات القلق مكبوحاً ومنسياً: ما زالت روزيل الصغيرة محبوبة، والرسالة دليلٌ على ذلك. قال فيها:

«لو شاتو، أبرشيّة شاتولييه، 25 يناير

صديقتي العزيزة

نحنُ جميعاً بصحّةٍ جيّدة، وكذلك أنت كما آمل، وذلك على

الرغم من عدم تأكّدنا من ذلك لأنّنا بعيدون عن بعضنا. بتّ أجيراً في مزرعةٍ صغيرةٍ على ظهر تل، وتركتُ أرض نوزيّاك التي حدّثتك عنها. حول هذه المزرعة ستّة أجراس كنسيّة، وعندما يكون الطقس لطيفا أعتقد أنّه من الممكن، لولا جبل سان ميشيل، رؤية أشجار الأهوار حيث أنت. ورغم ذلك ما زلت أراك أمامي. عادةً ما أعود أيام السبت إلى الأم نيسمي، وكذلك إلى أخي الأكبر منّي، والذي بات أيضاً أجيراً لدى بعض المرابعين في لا فلوسلييز. نتحدّث عنك في منزل الأم، وغالباً ما أقول إنّني لست سعيداً كما كنتُ قبل معرفتي بك، أو أنّني سأكون ذلك بحال عرفكِ كلّ من في المنزل. يعرفون اسمك على سبيل المثال! الصغار وأختي نويمي، عندما يأتون مساء السبت إلى أجرتي، يصرخون في الطرقات ليضحكوني: «هل لديك أي أخبار عن روزيل؟» لكن ماما نيسمي لا تريد أن تصدق أن لديكِ مشاعرَ حبٍّ لأجلي لأننا فقراء للغاية، ولو رأتك فقط فستفهم أنها محبّة لمدى الحياة. وقضيت وقتي يوم الأحد أخبرها كيف كان الحال في لا فرومنتييز.

روزيل، مرّت أربعة أشهرٍ منذ أن رأيتك كما أمرتموني. علمت فقط في سوق بوزاغ، من رجلٍ من الأهوار جاء لشراء الخشب، أنّ شقيقك أندريه عاد إلى البلاد، وأنّه يعمل كما كان المرابع في لا فرومنتييز يحبّ أن نعمل لديه، لذلك لن يمرّ وقتٌ طويلٌ دون أن أعود لرؤيتك. سأصل ذات مساءٍ فيما الرجال ما يزالون بالخارج، وعندما تفكّرين بي وأنت تطهين الحساء في الغرفة الكبرى. سأقترب من جانب البيدر، وحينما

تسمعينني أو تريننى افتحي النافذة يا روزيل، وأخبريني بإحدى نظراتك البسّامة أنّك ما زلت تحتفظين بحبّك لي. عندها ستسافر الأم نيسمي وتطلبك من والدك، وإذا وافق فإنّني أقسم بمعموديّتي أنّني سأصطحبك إلى منزلي لتكوني زوجتي. أنتِ في دمي، وما ببالي أية فكرة أخرى، وما في بقلبي أيّ صديقةٍ طيّبةٍ أخرى. كوني بخير. أحييك من كلّ قلبي.»

جان نيسمي

مثل حبّات المسبحة التي تكرّ وتصبح تحت الأصابع، عادت عبارات الرسالة إلى ذاكرة ماري روز واحدةً تلو الأخرى، وتبدت صورة جان نيسمي أمام عينيها المفتوحة بقوّةٍ على الريف. رأته الشابة مرّةً أخرى مشدوداً في سترته بأزرارٍ على شكل قرن، بوجهه الناتئة عظامه وعينيه المتّقدتين اللتين تضحكان لها فقط وللأشغال الجميلة المنتهية، وذلك عندما يحدّق في حزمات الحبوب التي قطعها وربطها في القش والمنجلُ متدلٍّ من ذراعه العاري. قالت في نفسها: «لم يعد الأب يتحدّث عنه بسوء، حتى أنّه دافع عنه مرّةً واحدةً أمام ماتوران. لم يرني يوماً أتذمّر أو أرفض العمل، وأعتقد أنّه يتمنّى لي التوفيق لخدمته بأفضل ما يمكنني. إذا استقر أندريه الآن وأحضر امرأة أخرى إلى لا فرومنتيير، فربما لن يرفض والدي السماح لي بالزواج. وأعتقد أن لدى أندريه أسبابه للتغيب يوم الأحد، وأن يتنزّه كما يفعل في سان جان، بيرييه، سان جيرفيه...»

وابتسمت وتلوّنت عيناها بلون التبن الطريّ الذي كان يغلّفها...

- علمت في سان جان دو مون أنّهم سيبيعون أثاث القصر يا أبي.

لوهلةٍ لم يفهم توسان لومينو الأمر.

- أجل، الأثاث بكامله، الصحف تعلن ذلك. كرّر أندريه. حسناً، بحال لم تصدّق ذلك فإليك القائمة! إنّها كاملة.

وسحب جريدةً من جيبه وأشار إلى الإعلان الذي قرأه الأب بجهد:

«عند الساعة الثامنة صباحاً من الأحد الواقع في 20 فبراير، سيباشر مكتب السيّد أولري، الكاتب بالعدل في شالّان، ببيع أثاث قصر لا فرومنتيير. سيباع كلّ من: أثاث الصالون وغرفة الطعام، المفروشات القديمة، منضدات الموائد، اللوحات، الأسرّة، الطاولات، الأواني الفخارية، الكريستاليات، جرار النبيذ، أسلحة الصيد، خزانة الملابس، والمكتبة، الخ...»

- وماذا إذاً؟ سأل أندريه.

- أووه! قال الأب. من كان ليقول ذلك قبل ثماني سنوات؟ هل أصبحوا إذاً فقراء في باريس؟

وظلّ صامتاً، ولا يريد الحكم على سيّده بقسوة.

- إنّه الإفلاس. قال أندريه. بعد الأثاث سيبيعون الأرض،

وسيبيعوننا كذلك.

كان سيّد لا فرومنتيير، والذي خلف العديد من المرابعين من نفس السادة، في منتصف الغرفة. رفع جفنيه المتعبين حتى التقت عيناه بصورة الصليب النحاسي الصغير المتدلي من رأس السرير. ثم أخفضهما كإشارةٍ إلى التسليم وقال:

- ستكون مصيبة كبيرة، لكن ذلك لن يمنعني من العمل!

وخرج، ربّما لكي يبكي.

XII

المزاد العلني

كان يوم 20 فبراير هو الزمن الذي توقّف فيه سرّاً لمغادرة لا فرومنتييير، وذلك قبل أربعة أيّامٍ من مغادرة سفينة المهاجرين التي من المقرّر أن ينضمّ إليها في أنتويرب. لم يكن عنفه هذا من الحقد، بل من الحزن الذي نما فيه، فقد حاول تشويه سمعة لا فرومنتييير لأنّه سيتخلّى عنها وما يزال يحبّها.

وهكذا جاء يوم الأحد الواقع في 20 فبراير.

في ذلك اليوم خرج قصر لا فرومنتييير عن صمته، ولكن لأيّ ضجيجٍ وأيّ محادثات! رأى الزوّار مرّةً أخرى، لكن أيّهم! لقد جاءه من أماكن بعيدةٍ تجّارٌ فضوليّون من نانت ولاروشيل وباريس. وقبل الثامنة صباحاً ظهر، أمام الدرجين المتفرّعين للقصر، عددٌ قليلٌ من رجالٍ متورّدي الوجه، قصيري القامة وممتلئي الجسم، والعديد منهم لحاهم حمراء بأنوف الصقور، وكانوا يتجاذبون أطراف الحديث ويجلسون على كراسي – للبيع – جرى ترتيبها على شكلِ صفوفٍ في مساحةٍ مفتوحةٍ، ومغطّاةٍ بالرمل الخشن الذي طقطق ذات يومٍ تحت عجلات العربات. وفوق الدرجة العليا التي أصبحت بمثابة منبرٍ وقف كاتب العدل، السيّد أولري، مبتهجاً وراء نظّارته؛ ونادى المنادي دون مبالاةٍ، كحفار القبور، على العديد من الآثار التي كانت على وشك أن تُبدّد؛ فيما شمّر ناقلو الأثاث عن زنودهم

رغم برودة الفصل. وقد أخذ الدرجان الحجريّان الملطّخان بالطين، والمتّسخان حتى منتصف الدرابزينات، يخبران عن تدفّق الزوار المقبولين لدخول القصر بالأمس وما قبله، وما زال عدد من الأشخاص الفضوليين يتجولون في الداخل مستغلين الفرصة الأولى التي أتيحت لهم لرؤية منزلٍ فخم.

في النهاية حضر البيع واحدٌ من أفراد عائلة لومينو، ألا وهو ماتوران، العاجز الذي كان أيّ مشهدٍ جميلٍ بالنسبة له، ولو مؤلماً، بمثابة هدنةٍ مع الألم والملل. وحينما تحدث عن الحضور قال الأب:

- بالنسبة لي، هذا من شأنه أن يعطيني الكثير من الدماء الفاسدة. اذهب حيث يمكنك رؤية مثل هذه الأشياء، وعندما يبيعون الأسمال أخبرني يا ماتوران، لأنني أريد أن أتذكر السيد الماركيز.

وعلى يسار السلّم، بعيداً عن الدائرة التي شكّلها الحشد، جلس ماتوران لومينو على حافّة كتلةٍ من الأشجار الخضراء. وملفّعاً بمعطفه الصوفي البني، مقلاً بكلامه ومستغرقاً بأفكاره أكثر من أيّ وقتٍ مضى، انتهى به الأمر إلى الاختباء بشكلٍ أو بآخر بين أغصان شجر الصنوبر، ومن هناك استمع كما لو كان يراقب، وجال بنظرته الزرقاء، حيث اتقد الغضب في بعض الأحيان، على واجهة القصر والمشترين والمارة.

وبدأ المزاد عند الساعة الثامنة والنصف.

كان أندريه آخر العائدين إلى المنزل قرابة الساعة الثامنة

مساءً، وقد أراد المرابع انتظاره للعشاء. جلس رفقة ماتوران تحت إفريز الموقد، وفيما كانا يدفئان أنفسهما ويأخذان ويعالجان عصا السيّد هنري، تحدّث كلّ منهما بدوره عن اليوم الحزين الذي انتهى، عن رجال سالِرتِن الذين تابعوا المزاد، عن العمال الذين شمعوا في اللحظات الأخيرة وهم يعيدون تثبيت الألواح الخشبية على النوافذ، والأنوار التي شوهدت تتجوّل خلف نوافذ الطوابق، كما في الأيام الخالية عندما كان البيت الأبيض العالي مليئاً بالزوار.

- أسيادنا لن يعودوا على الإطلاق. قال توسان لومينو. أنا الذي لطالما آمنت بهم! ها قد انتهى كلّ شيء!

- انتهى كلّ شيء! قال أندريه وهو يصعد درجات العتبة في الظلمة. أنا محظوظ لأنّني لم أرَ ذلك.

بدا مرهقاً ومتأثّراً، ولمع محيط عينه، كما لو أراد الشاب الماريشيّ الوسيم أن يبكي. اعتقد توسان لومينو أن عار هذا المزاد العلني، والذي عانى منه كثيرًا، قد لامس قلب ابنه بنفس الصورة، وأنّ هذا هو السبب الوحيد لغياب دريو الطويل، فقال له:

- اجلس على الطاولة، لا بدّ أنّك جائع. الحساء جاهز.

- لا لست جائعاً. قال أندريه.

- ولا أنا. أجاب الأب.

قام ماتوران بجرّ نفسه نحو المقعد وقدّم لنفسه طبقاً من

الحساء، بينما ظلّ الأب جالساً أمام النار ودريو واقفاً، سانداً كتفه على زاوية الجدار قرب الإفريز ومراقباً أباه وشقيقه بالتناوب.

- أين كنت؟ سأل المزارع.

وأشار أندريه إلى الإكليل قائلاً:

- من واحدٍ إلى آخر: لدى صديقك غيرينو دو لا بينسونيير، لدى طحّان موكسوري، في ليفريل، لدى عائلو ماسونّو...

- لو غلوريو رجلٌ طيّب، وعائلته عائلة طيّبة. قاطعه الأب.

- وذهبت أيضاً لرؤية عائلة ريكولو في مالابري...

- بعيدٌ جدّاً!

- وعائلة إرتو في باريه دو مون...

حدق توسان لومينيو في عيني ابنه الصافيتين مخمنًا.

- ما الذي كان عليك فعله مع هؤلاء جميعهم يا بني؟

- فكرة...

لم يستطع تحمّل استجواب النظرة الأبويّة طويلاً، وبدأ يحدّق في الزاوية المظلمة حيث كان السرير.

- فكرة... إليك ذلك، بينما كنتُ في الطريق، رغبت في القيام بجولةٍ كاملةٍ والذهاب إلى ما هو أبعد من لاروش لرؤية فرنسوا.

- فرانسوا؟ همهم المرابع... أنت معلي إذاً يا ولدي الطيّب: هل تفكّر فيه كثيراً؟

أومأ الشاب برأسه ببطءٍ وقال:

- أجل، هذه الليلة بالذات، هذه الليلة أكثر من كلّ ليلةٍ في حياتي، وددتُ أن يكون بجانبي.

نطق أندريه كلماته بعاطفةٍ قويّة، بجلالٍ مؤلمٍ، حتى أنّ ماتوران الذي لم يكن يعرف تاريخ سفر أندريه أدرك أن الموعد قد حان، وأنّ أندريه لديه بضع دقائق للمكوث في لا فرومنتيير ليس أكثر. صعد طوفانٌ من الدم إلى رأسه، وفغر فاه، واستولت رعشةٌ على جسده بالكامل، فيما كانت عيناه محدّقتين دون طرفة بأندريه. توهّجت بحياةٍ غير عاديّة، تلك العينان اللتان كان فيهما فخر منتصر في هذه الساعة العظيمة والقليل من الشفقة والمحبّة وربّما الندم. خمّن أندريه أنّهم كانوا يودّعونه.

ومع ذلك قرّب الأب كرسيّه من الطاولة، ورفع العصا أفقياً نحو ارتفاع المصباح ليتمكّن أندريه من رؤيتها بشكلٍ أفضل، وداعب الخاتم الذهبيّ بأصابعه المتّسخة عند مفاصلها. كان يعتقد أن تفكير ابنه قد عاد بالفعل إلى الحاضر، أو يميل نحو مستقبله نفسه، وقال:

- هذا ما اشتريته... من ذكريات السيّد هنري... كثيراً ما كان يطرق بابي بطرف هذه العصا «تك! تك! تك! أأنت هنا يا لومينو العجوز؟». حين تصبح سيّد لا فرومنتيير يا أندريه...

شعر الشاب الواقف وراء المرابع عند هذه الكلمات أنّ شجاعته تتلاشى، ولم يعد باستطاعته لجم دموعه. وخوفاً من أن يستدير الأب نحوه تراجع بصمتٍ نحو طرف الباب.

لم يسمع توسان لومينو شيئاً، وتابع:

- حين تصبح سيّد لا فرومنتيير فلن ترى أسيادنا مرّةً أخرى. أظنّ أنّ المزرعة لن تباع... ما زلت متأملاً بذلك بعض الشيء، لكن الماركيز لن يعود مجدّداً. لن تكون الأوقات التي ستعيشها يا بني كتلك التي عشتها!

بكى دريو وهو ينظر إلى جدران الغرفة القديمة، تحديداً في المكان الذي يشغله ظلّ أكتاف أبناء عائلة لومينو.

- لا تقلق يا صغيري: ولو رحل السادة، فالأرض تبقى!

بكى دريو وهو ينظر إلى مسبحة الأم لومينو المعلّقة على رأس السرير.

- الأرض طيّبةٌ ولو تحدّثت عنها بالسوء، ستدرك ذلك.

بكى دريو وهو ينظر إلى ماتوران.

- ستعطيها، وستعطيك أيضاً!

بكى دريو وهو ينظر إلى الأب الذي ما زال يحرّك عصاه الشقراء.

فكر في القليل من الوقت، في ضوء المصباح، في الأيدي المرهقة، المتصلبة والمحززة بجروحٍ لأجل خدمة الأسرة،

لأجل إنقاذها وإعلاء شأنها، الأيدي التي لم تثبط عزيمتها أبداً. وبدافعٍ من الاحترام، والحزن أيضاً، قام بشيءٍ لم يقم به في لا فرومنتيير منذ كبر الأبناء وتوفّيت الأم: اقترب في الظلّ خلف الأب، وانحنى وقبّل جبين العجوز المتجعّد.

- ولدٌ مطيع! قال توسان لومينو وهو يردّ له قبلته.

- سأذهب إلى الفراش، لا يمكنني التحمّل أكثر من ذلك. همهم أندريه.

وشدّ على يد ماتوران في احتضانٍ سريع.

لكنه استغرق وقتًا طويلاً لاتخاذ الخطوات العشرة التي تفصله عن الباب الداخلي الذي يصل بمكب النفايات حيث تعمل روزيل. عندما أغلق الباب، نظر حول الغرفة مرة أخرى من خلال الشق الضيق، ومن ثم شمِع يتحدث قليلاً مع أخته، وبعدها لم يعد أحد يسمعه قط.

غلفت الليلة العظيمة المزرعة، وكانت الأخيرة التي سيأوي فيها سقف لا فرومنتيير دريو.

بعد ساعةٍ كان المارة الذين ضلّوا سبيلهم بين الطرقات، ورأوا هذه الكتلة غير الواضحة من المباني وأوراق الأشجار، أكثر إعتاماً من الضباب وصامتين مثله، واعتقدوا بلا شك أن الجميع نائمون في المزرعة. لكن باستثناء الخادم، فجميع المقيمين فيها ظلّوا ساهرين.

لم يتوقّف ماتوران، والذي تأثّر بشدّة، عن الانفعال والكلام.

وعلى الضوء المطفأ تواصلت المحادثة بين الأب والابن اللذين كان سريراهما بجانب بعضهما على طول الحائط. وغير قادر على قول أيّ شيء حيال سفر أندريه الذي فرض نفسه عليه بلا هوادة، مع إصرار وخوف من الكوابيس، تنقّل العاجز بكلامه من موضوع إلى آخر، ولم يستطع الأب تهدئته.

- أؤكّد لك أنّني رأيت البوكيني. أنا بعيدٌ عنه، لكنّني أكرهه بشدّة لدرجة أنّني لا أخطئ بشأنه: كان لديه طريقة في الجري، يختبئ مثل النمس، يرتدي ملابس بنيّةٍ وعلى قبعته شيءٌ أحمرُ كأوراق البلوط.

- نم يا ماتوران، أنت مخطئٌ برؤيتك.

- في الواقع، لابد أنها أوراق بلوط. عندما كان هنا يضعها أحيانًا على قبعته بدافع المجد، للدلالة على أن بلاده مكسوة بالنبات أكثر من بلادنا ومزدانة بالأشجار بشكل أفضل. آه! الملعون! لو كان بإمكاني الجري!

- ما كنت لتجده يا ابني المسكين، فهو الآن في بوكاج، في منزله. ما الذي سيأتي لفعله مع بيع أرض الماركيز؟

- لكي يرى أختي! ربما تحدث إليها لكنّني لست متأكدًا، لأن الليل كان هابطاً بيني وبين روزيل.

تنهّد الأب وهو مستلقٍ على سريره الكبير ذو القبّة وقال:

- دائماً أختك! أنت تعطي نفسك الكثير من العذاب بشأنها. نم يا ماتوران: لن يجرؤا على التحدّث مع بعضهما البعض،

فهما يعرفان أنّني لن أزوّجهما لبعضهما مطلقاً.

- الحقيقة أنّ هناك ما يهتزّ في المخبز. قال جان نيسمي.

طَرِق الباب برفق، واضطرب لسان القفل في إطاره الحديدي.

وابيضّ وجه روزيل تماماً، ولكن سرى في عروقها دم الشجعان. وحاملةً الضوء بعيداً عن جسدها قدر الإمكان، عبرت الغرفة بهدوءٍ ورفعت لسان القفل بعناية، ومن ثمّ فتحت الباب بعجلة.

وغزل الظلّ داخل الغرفة ودار حولها، ومن ثمّ عاد إلى روزيل التي تعرّفت على باروج.

- ما الذي تفعله هنا؟ من أين جئت؟ سألت روزيل.

هبّ تيارٌ هوائيّ عنيفٌ في الغرفة المجاورة.

- إذاً الباب الخارجي غير مغلق؟

ونظرت الفتاة إلى جانب النافذة ولمحت وجه جان نيسمي، ومن ثمّ دخلت إلى المخبز: سلال القش، الصندوق، سلّم العليّة وحزم الخبزة التالية، الصورة العاديّة ظهرت بأكملها، غير أنّ الباب المؤدّي إلى الغرفة الأخيرة المخصّصة لأندريه كان مفتوحاً. واصلت روزيل الاقتراب، وكادت الريح أن تطفئ الشمعة التي توجّب عليها مداراتها بيدها، فالرياح آتيةٌ بحريّةٍ من الفناء. نعم، لقد خرج أندريه... ركضت نحو السرير، لم يكن مشغولاً... استولى عليها الشك الذي طردته بعيداً بادئ الأمر.

فكّرت في فرانسوا. دموع أندريه، السهرة، قلقه... «يا إلهي!» همهمت، وسرعان ما انحنت وأمالت الشمعة لترى تحت السرير حيث يضع أندريه زوجي نعله وحذاء سفره: اختفى كلّ شيء. فتحت صندوق ملابسه: إنّه فارغ. عادت إلى المخبز وصعدت السلّم نحو العليّة. هناك، في الزاوية اليمنى بجانب كومة الحنطة، لا بدّ أن تجد الحقيبة السوداء الصغيرة التي أحضرها معه من أفريقيا. رفعت الضوء: لم تعد الحقيبة موجودة. كل البراهين مثبتة وباتت المصيبة مؤكّدة.

عندها صرخت مذعورةً أثناء نزولها عن السلم، دون أن تقدر على الاحتفاظ بسرّها:

- أبي!

أجابها صوتٌ خفت بالجدران:

- ماذا هناك؟

- دريو ليس هنا!

كانت تجري وتصرخ على هذه الشاكلة. عبرت الغرفة، وخلف النافذة ذات القضبان اعتقدت عيناها الباحثتان أنّهما رأتا ظلّاً.

- وداعاً جان نيسمي! قالتها دون أن تتوقّف. لا تعد مجدّداً! نحن تائهون!

واختفت ودخلت مكب النفايات، واتّجهت نحو الغرفة الكبيرة حيث ينام والدها.

ومستيقظاً في هجوعه الأول، وبعد أن فهم نصف الحكاية

فقط، ظهر فجأةً بملامح قاسيةٍ في ضوء الشمعة التي تحملها ابنته وسألها:

- لم تصرخين؟ من غير المحتمل أن يكون بعيداً.

ومع ذلك، وبرؤيته للرهبة التي علت ملامح روزيل، فكّر أيضاً في فرانسوا وتبعها وهو يرتجف.

وجابا المنزل بكامله على طوله، وبعد ذلك دخلا غرفة أندريه، وأفسحت روزيل المجال للسماح للمرابع بالمرور. لم يذهب بعيداً: نظر إلى السرير الذي لم يُشغل على الإطلاق، وهو ما كان كافياً ليستوعب الأمر. للحظةٍ ظلّ بلا حراك، والدموع أعمته. ومن ثمّ مشى نحو الفناء مترنّحاً، وعند العتبة استند على ركيزتين من الجدار، وأخذ نفساً طويلاً كما لو أراد مناداته في الليل، لكن كلّ ما خرج من فمه كان صوتاً مكتوماً بالكاد يمكن إدراكه:

- دريو!

وسقط الرجل العجوز الذي أمسكه البرد مغشيّاً عليه فوق أرضيّة الغرفة.

في الوقت ذاته، في الجزء الخلفي من المنزل، خرج ماتوران لاعناً وضارباً الأثاث والجدران برأسه وعكازاته.

- لي أنا! صرخ ماتوران. ابتعدي يا روزيل، أريد أن أرى!

وركعت روزيل بجانب أبيها وعانقته باكيةً، وفي الفناء تقدّم الخادم الذي جذبته الضوضاء حاملاً فانوساً.

XIII

أولئك في المدينة

استعاد المرابع وعيه بسرعة، ونهض ونظر حوله، وعندما رأى ماتوران يندب قائلاً «لقد مات!» قال:

- لا يا صديقي، ما زلت متماسكاً.

وبمساعدة الخادم، عاد إلى الفراش.

ومنذ فجر اليوم التالي خرج وبدأ بجولةٍ حول المزارع ليعرف شيئاً عن مصير ابنه. لا ماتوران، ولا الخادم على ما يبدو، كان لديهما أدنى شك حيال سفر أندريه، لكنّهما لم يريا ولم يسمعا شيئاً. لذلك ذهب توسان لومينو متّجهاً نحو الأصدقاء القدامى أو الجدد الذين تردّد عليهم أندريه خلال الأشهر الماضية، أبناء المرابعين والمقيمين والبحارة. ولمدّة ثلاثة أيّامٍ جال الأهوار من سام جيرفيه إلى فرومنتين، ومن سالِرتِن إلى سان جيل. أولئك الذين استفسر منهم إمّا يعرفون القليل أو لم يرغبوا في الإضرار بالشخص الذي وثق بهم، وجميعهم اتفقوا فقط على أن أندريه غالبًا ما تحدث عن جني ثروته وراء البحار حيث الأرض الجديدة. وقد اعترف أفضلهم اطلاعاً:

- نهار الأحد ودّع عدّة أشخاصٍ بمن فيهم أنا، وأخبرني أنّه ذاهبٌ إلى أمريكا الجنوبيّة، وأنّه سيكون لديه مزرعة من ستين جورنال من الأرض الجيّدة مقابل لا شيء، لكنّني لا

أعرف اسم البلد الصغير الذي سيستقرّ فيه.

في مساء اليوم الثالث، عندما عاد الأب إلى المنزل بهذه الإجابة، وجد العاجز أمام النار، فسأله:

- أما زالت الكتب التي تحتوي على رسومٍ للبلدان لديك يا ماتوران؟ أتعرفها جيّداً؟

- كتب الجغرافيا؟ أجل، فهي موجودةٌ منذ أيّام المدرسة، لماذا؟

- أودّ رؤية أمريكا، فحسبما يقولون، هذا هو المكان الذي ذهب شقيقك إليه. قال العجوز.

عندها جرّ العاجز نفسه نحو الخزانة، ومن تحت الملابس في قلبها أخرج مجموعة من الكتب المدرسيّة، خمسة أو ستّة، كانت تخصّ أحد الأخوين. عاد مع أطلسٍ صغيرٍ للمرحلة الابتدائيّة كُتِب على غلافه بخطٍّ يدويّ كبير: «هذا الكتاب للومينو أندريه، ابن لومينو توسان، من لا فرومنتييير، بلدة سالِرتِن، فونديه».

مرّر الأب يده على سطور الكتابة كما لو كان يداعبها وقال:

- كان كتابَه.

فتح ماتوران الأطلس. لم تعد أوراقه محافظة على شكلها، فقد باتت إمّا مستديرة عند أطرافها بفعل الاحتكاك، وإمّا ممزّقة وإمّا مطوية، وعلى طول ملزمته تنسل الورق بنتفٍ من الوبر. قلّبت أصابع العاجز الصفحات بحذرٍ وتوقّفت عند

صفحةٍ ملطّخةٍ بالحبر، حيث الأمريكيتان متحدتان ببرزخهما ومرسومتان بخطّ أصفر برتقاليّ وتشبهان كأسين كبيرين. انحنى الرجلان نحو الخريطة.

- انظر، ها هي أمريكا الجنوبيّة، وها هو البحر. قال ماتوران.

فكّر المزارع لفترةٍ طويلةٍ بالكلمات التي قالها ماتوران، وبذل جهدًا لربطها بهذا الرسم البائس، وهز رأسه وقال بنبرةٍ حزينة:

- لا أستطيع تخيّل مكانه، لكنّني أرى أنه هناك بحر، وأنّه ضاع من أجلنا...

أغلق ماتوران الكتاب ببطءٍ وقال:

- كلاهما ولدان سيّئان: لقد هجراك.

من الواضح أن المزارع لم يسمع ذلك، فطلب بلطفٍ، بلطفٍ أكثر مما هو معتادٌ منه:

- روزيل، غداً في الصباح الباكر اغلي لي فنجاناً من القهوة: سأذهب للبحث عن فرانسوا.

وفي اليوم التالي، والذي كان في الحقيقة اليوم الرابع منذ مغادرة دريو، نزل مرابع لا فرومنتيير، قبل العاشرةِ صباحاً، من عربته في محطّة لاروش سوريون.

وبمجرّد أن وطأت قدماه الرصيف شرع بالبحث عن ابنه بين الموظّفين المشغولين بفتح الأبواب وإخراج الأمتعة من

المقطورة. ووسط المسافرين المستعجلين، مهيمناً برأسه على معظمهم، كان يتوقف كل عشرة خطوات ليتابع بعينيه، هنا أو هناك، وجهًا شابًا ممتلئاً يشبه وجه فرانسوا. أراد رؤية ابنه مرّةً أخرى، لكنّه خشي مقابلته في هذا المكان وعلى مرأى العامّة. هو الذي أتى بحريّةٍ مرتدياً بدلته الصوفيّة السوداء، المزنّرة باللون الأزرق، وقبّعته الجديدة ذات الخطوط المخمليّة والمركّزة جيّداً نحو الخلف، هو سيّد تنظيم أوقات العمل والفراغ خلال أيّامه، شعر بالخجل أنّه بين هذه المجموعة من العمّال المأمورين، والمرتدين للباس موحّدٍ لا يُسمح لهم بتغييره بزيّ على ذوقهم، هناك فرد من عائلة لومينو من لا فرومنتيير. ولمّا لم يرَ فرانسوا تحت الباحة اتجه نحو خطوط التخليص حيث كان فريقٌ من ستّة رجالٍ يدفعون عربةً محمّلةً بأكتافهم، وقال في نفسه: «هنا يجري تسخيرهم كالدواب لدي» عندما ناداه صوت:

- أين ستذهب؟

- لرؤية ابني.

- من يكون؟

فقال المرابع وهو يلمس قبّعته بأطراف أصابعه:

- قد تعرفه، إنّه موظّفٌ لديكم، واسمه فرانسوا لومينو.

وأومأ المراقب بإيماءة ازدراء:

- لومينو؟ آه! رجلٌ انضم إلى الفريق منذ أربعة أشهر؟

- خمسة. قال الأب.

- ربّما، الضخم المتورّد الوجه والكسول بعض الشيء، هل تودّ محادثته؟

- أجل.

- حسناً! إن كنت تعرف مكان إقامته فاذهب إليه. يمكنك الاجتماع به مع حلول ساعة الغداء عندما يدخل، لكن هنا لا يمكن الذهاب على الطرقات يا سيّدي الطيّب.

وقال متذمّراً وهو يبتعد:

- هؤلاء الفلاحون، كما أقول، وليس هناك شك؛ في كلّ مكانٍ يعتقد أنّه في حقوله.

فقام المزارع بضبط نفسه ولم يجب بسبب فرانسوا. غادر المحطة، وفي ظل المطر الذي ظلّ يتساقط منذ الصباح، بدأ يتجول في الشوارع الواسعة شبه المهجورة، والتي تحدها المنازل المنخفضة. أمّا المارة الذين استجوبهم لم يعرفوا مقهى «لا فوسيّ» حيث تقيم إليونور، والذي عرف اسمه من الماريشيين الذين حضروا إلى أسواق لاروش. انتهى به الأمر إلى اكتشاف الشعار بنفسه، الشعار الذي يتأرجح في نهاية قضيب، في إحدى الضواحي على حافة الريف.

كان المنزل، شأنه شأن المنازل المجاورة، مكوّناً من طابقٍ واحدٍ ونافذةٍ واحدةٍ فقط. دفع توسان لومينو الباب ودخل غرفة المقهى المؤثثة بطاولاتٍ خشبيّة بيضاء، بمقاعد

من القش وخزانة زجاجيّة رُتّبت فيها زجاجات المشروب المفتوحة ووضعت أسفلها أطباق من اللحوم الباردة وعلبتان من الكعك الجاف. لم يكن هناك أحد. انتصب لومينو في منتصف المكان، فيما استمرّ الجرس الذي اشتغل مع دخول المرابع في الرنين المتصدّع بنغمةٍ أضعف وأضعف. وقبل أن يتوقّف الرنين فُتِح بابٌ ثانٍ قبالة الباب الأوّل، وعلى طول المقصف دفع الهواء روائح المطبخ، واقتربت امرأةٌ مصفّفةً شعرها وهي تومضُ بعينيها وتتمايل على وركيها. على الرغم من جلوسه عكس الضوء، إلا أنّها تعرّفت فوراً على الزائر، واحمرّت خجلاً وتركت طرف مئزرها الذي تمسكه بيديها المتصالبتين والموضوع على بطنها يسقط، وتوقّفت متجمّدة.

- أوه أبي! قالت المرأة. يا لها من مفاجأة! مرّ وقتٌ طويلٌ لم نرَ فيه بعضنا البعض!

- أجل هذا صحيح: مرّ وقتٌ طويل.

كانت مترددة، سعيدةً لرؤية الأب مرة أخرى ولا تجرؤ على قولها، دون معرفة مجيئه، أو ما إذا كان عليها أن تعرض عليه الجلوس، أو تقبيله، أو الوقوف على مسافة مثل أولئك الذين لا يملكون أي مغفرةٍ يأملون بها. لم ترفع عينيها عنه قط. غير أنّ الكلمات غير القاسية، والصوت المرتجف لكنّه رقيق، طمأنتها، فسألته:

- أيمكنني معانقتك يا أبي رغم ذلك؟

وسمح لها بمعانقته لكنّه لم يقبّلها. ومن ثمّ أثناء جلوسه

على الكرسي، فيما وقفت إليونور في الجانب المقابل من الطاولة، بدأ ينظرُ إلى ابنته بفضولٍ حزينٍ ليحكم على التغيير الذي حدث لها، فيما كانت إليونور الواقفة على بعد خطوتين من الحائط، محرجةً من هذه النظرة التي شعرت بتساؤلها الثاقب، قد ربطت ياقة فستانها المصنوع من الصوف الرمادي، وشدّت أكمامها التي شمّرتها عن زندين عاريين، وقلب فصّ خاتمها المزدوج الذي تلبسه في يدها اليمنى.

- لم أتوقّع ذلك. قالت متلعثمة وقد أخفضت عينيها... أشعرُ بالصدمة لرؤيتك مرّة أخرى!... سيتفاجأ فرانسوا أيضاً... إنّه يأتي كلّ يومٍ إلى المنزل عند الساعة الحادية عشرة... وأحياناً عند الحادية عشرة والنصف... قل لي يا أبي، هل ستأكل لقمة؟

وأشار بالرفض.

- كأسٌ من النبيذ؟ هذا لا يُرفض أليس كذلك؟

وبدلاً من أن يجيبها، قال توسان لومينو:

- أتعرفين من جاء إلينا يا إليونور؟

فجأة تلاشت الثقة الضئيلة التي لديها وجفلت مرة أخرى. امتلأت عيناها الزرقاوان الشاحبتان بالخوف، ونظرت حولها لترى ما إذا كانت المساعدة المتوقعة ستأتي من جانب الشارع. ومن ثمّ أجبرت على الكلام ورأسها متّكئ على الحائط وخافضةً جفنيها وقالت:

- أجل... لقد مرّ في لاروش... وأراد أن يرى فرانسوا.

- ماذا تقولين؟ قال توسان لومينو وهو يدفع الكرسي للخلف وينهض. أندريه؟ هل تحدّثت مع أندريه؟

- في وقتٍ مبكرٍ من صباح يوم الاثنين... جاء... كانت له سحنةٌ تتبادر إلى ذهني طوال الوقت عندما أكون وحيدةً... أوه! سحنة كما لو أنّ الشؤم قد دخل. فتح الباب مثلك... وقال: «سأرحل عن لا فرومنتيير لأنّك لم تعد هناك يا فرانسوا!» أنا أفهم جيّداً يا أبي، فهذه ضربةٌ لك... لكن لا تغضب، فنحن لم نقل شيئاً لنجعله يغادر... حتى أننا جميعاً شعرنا بالأسف لأجلك.

كانت قد وضعت يدها أمامها وكأنها تمنعه من الاقتراب، لكنها رأت على الفور أنه ليس لديها ما تخشاه، فسقطت يدها على طول الجص المخطط. لأن توسان لومينو بكى أثناء النظر إليها، وعلى خديها، في التجاعيد التي جوّفتها المعاناة، سالت الدموع. أراد أن يعرف كل شيءٍ فسألها:

- هل تحدّث عنّي؟

- أبداً.

- هل تحدّث عن لا فرومنتيير؟

- مطلقاً.

- هل قال على الأقل إلى أين سيذهب؟

- لم يرغب بالجلوس ولا البقاء، قبّلنا، لكن الكلمات لم

تأتِ منه أكثر ممّا أتت منّا. سأله فرانسوا: «إلى أين ستذهب حبيبي دريو؟» فأجاب: «سأحاول أن أجني ثروةً في بيونس أيرس في أمريكا... عندما أغدو ثريّاً ستسمعون الجميع يتحدّث عنّي. وداعاً ليونورا وداعاً فرانسوا!» وغادر.

- غادر. كرّر لومينو. غادر ابني الأصغر!

وتأثّرت إليونور بالعدوى، واخضلّت أطراف عينيها لكنّهما كانتا ملتفتتين نحو الشارع، في الوقت الذي أغلق فيه الأب عينيه، وقالت:

- يجب أن تأتي معي إلى المطبخ يا أبي، فالآن موعد عودة فرانسوا، وإن لم يجد عشاءه فأنت تعرف: لن يكون راضياً...

ودخلت الغرفة الثانية حيث تبعها والدها، والتي كانت مجرّد حجرةٍ صغيرة مظلمةٍ بكاملها حتى في وضح النهار، وتطلّ نافذتها على فناءٍ ضيّقٍ محاطٍ بالمباني. كان فيها فرنٌ من الحديد، مشتعلٌ في هذه اللحظة، وطاولة وثلاثة كراسٍ تكاد تكتظّ بها. أخذ المرابع كرسيّاً وجلس بين النافذة والباب الذي ظلّ مفتوحاً حتى يرى فرانسوا عندما يمرّ في غرفة المقهى. بدأت إليونور بالإعداد للطهي، وبوضعِ لوازم المائدة لشخصين على الطاولة الصغيرة، وهي تركضُ مشغولة من قسمٍ إلى آخر للعثور على القليل الذي تحتاجه وبالكاد تحرز أيّ تقدّم، فيما ظلّ توسان لومينو صامتاً. اعتقدت نفسها مضطرّة للتنهّد عندما مرّت أمامه، ولأن تقول:

- هذا من سوء الحظّ بالنسبة لك! لا، لا بدّ أن لا فرومنتيير حزينة الآن! مسكينٌ يا أبي على أيّ حال!

أمّا هو فأنصت إليها، واعتبر أنّ الكلمات الفارغة هذه نوعاً من أحاديث الشفقة، وقال لها بعد لحظات، فيما كانت منحنية تقطّع الخبز للحساء:

- هل تخلّيت عن غطاء فونديه يا ليونور؟

- أجل، فهنا في لاروش يتمّ تحضيره بشكلٍ سيئ، كما أنّه غالي الثمن. ومن ثمّ لا أحد هنا يرتدي أيّة أغطيةٍ للرأس.

- حسناً! بما أنّك لم تعودي ترتدين كما كانت ترتدي والدتك وجدّتك وكلّ نساء العائلة اللواتي أعرفهن، أأنتِ أكثر بهجة؟ أتحبين حالتك الجديدة؟

واصلت تقطيع الخبز لقطعٍ صغيرةٍ وأجابت:

- إنّه ليس العمل ذاته، لكنّني على الأقل أعاني نفس القدر من المتاعب كما هو الحال في دارنا، ولا يمكنني القول عكس ذلك. لديّ ترتيب الغرف؛ والتسوق؛ وغسل الأرض كلّ يومين عندما تمطر، كما هو الحال اليوم، أو عندما تثلج؛ وكذلك الطبخ في كافّة الأوقات ولأشخاصٍ ليسوا بمهذّبين على الدوام، أؤكّد لك. نشتكي أحياناً من عدم رؤية الناس بما يكفي، وذلك لأنّ المقهى كلفته باهظة، باهظة بشدّة. وبعد ذلك عندما يأتي الزبائن، أناس الطرقات الذين يطلبون مشروباً، فغالباً ما أخافهم. في الحقيقة لو لم يكن لديّ جيران...

- وماذا عن شقيقك، أيعجبه وضعه؟ قاطعها المرابع.

- نصف على نصف. إنّه الراتب الضئيل كما ترى، وفرنكان في لا فرومنتيير تساوي أكثر من ثلاث فرنكات هنا.

تردّد الأب قليلاً، ومن ثمّ سألها خافضاً صوته:

- أخبريني: أوليس نادماً بعض الشيء على فعلته هذه؟ لم يعد عندي ابنٌ يا ليونور، ولستُ بخير: أتعتقدين أن فرانسوا سيعود يوماً ما إلينا؟

لقد غفر، لقد نسي، وها هو يطلب مساعدة أولئك الذين أساؤوا إليه.

تغيّرت ملامح وجه إليونور فجأةً، ومسحت عينيها بطرف منديلها، وهزّت كعكة شعرها المرفوعة إلى أعلى، وقالت بنبرةٍ جافّة:

- لا أعتقد ذلك يا أبي... أفضّل إخبارك على الفور... سترى أخي... ستتحدّث معه... لكنّني لا أعتقد ذلك أبداً...

وكما لو أنّ ألماً أصابها، استدارت بحركةٍ مفاجئةٍ نحو الفرن.

دقّت الساعة الحادية عشرة والنصف، وفُتح باب الشارع بقوةٍ ودخل رجل، فقالت الفتاة دون أن تغيّر مكانها ودون أن تنحني:

- إنّه هو!

تعرّف الأب فعلاً على فرانسوا، على الرغم من سترته

وقبّعته المصنوعة من اللباد القاسي؛ تعرّف عليه في الضوء الخافت للغرفة من خلال مشيته الرعويّة، وأيضاً من خلال عادة فرانسوا بترك ذراعيه بعيدين بعض الشيء عن جسده. وسرعان ما بات قبالته عند عتبة المطبخ، وبنظرةٍ واحدةٍ اكتشف تلك الملامح الثقيلة، ذلك الوجه المتورّد الخمري، ذلك الشارب المتدلّي، وكذلك مظهر التراخي واللامبالاة الذي لم يتغيّر. مشى فرانسوا حانياً رأسه، وبدرت منه حركة عاطفية طفيفة عند رؤيته والده.

- أهلاً بك يا أبي! قال وهو يمدّ يده... إذاً ليس هناك خير كما أرى، أليس كذلك؟

أومأ المرابع إيماءة إنكار.

- أنت تتألم... أجل أفهمك... أضع نفسي في مكانك... ما كان ينبغي لأندريه أن يفعل ذلك، فهو الابن الأصغر... كان عليه البقاء...

أمسك توسان لومينو بيد فرانسوا، وضغط عليها بكلتا يديه بحنانٍ ناطقٍ، وعيناه تبحثان في الوقت ذاته عن عيني ابنه وتؤدّيان الرجاء نفسه، لكنه كان يتعافى من دهشته بسرعة حيث دخلت كلمات الأب الصامتة روحه. تشدّد تجاه الشفقة التي أخذته للحظة، وسرعان ما سحب يده وتراجع قليلاً، وقال بهيئة رجلٍ يتحدّى ويدافع عن نفسه:

- أسمعك جيّداً... أنت ترغب بعدم استئجارِ خادمٍ آخر وإعادتنا أنا وليونور إلى ساليرتين، أليس كذلك؟

- إن كان باستطاعتك حبيبي فرانسوا: لم يعد لديّ أحد.

رسم فرانسوا نصف ابتسامةٍ لأنّه خمّن بشكلٍ صحيح، وأجاب قائلاً:

- لكنّك ترى أن الآخر قد رحل أيضاً، وأنّه لم يبق هناك شيءٌ يتعلّق بالأرض.

- أنت مخطئ: لقد غادر لزراعتها في مكانٍ آخر، في أمريكا! ما أثار اشمئزازه من أرضنا ليس عدم رؤيتك مرّة أخرى يا فرانسوا!

- تماماً! قال فرانسوا وهو يقرّب كرسيّاً ويجلس بالقرب من الطاولة. يبدو أن أراضي الأمريكيتين ما زالت ممتازة، بينما هي صعبةٌ للغاية لدينا.

لم يلاحظ المرابع الكلمات التي أهانته فعلاً ذات يوم، وقال:

- حسناً! أنا أطلب مساعدتك. ليس معي ابن واحد في الآونة الحاليّة، لأنّك تعلم أن ماتوران بالكاد مهمّ في المزرعة. قريباً ستصبح السيّد وسيكتب عقد الإيجار التالي باسمك، وسيظل هناك واحد من عائلة لومينو في لا فرومنتييير على الدوام. هل ترغب بالعودة.

أومأ فرانسوا إيماءة تبرّم ولم يجب.

- أولا تكسب بصعوبةٍ كما أخبرتني إليونور؟ قال المرابع.

- نعم، الإيجار قليل.

- أوليس المقهى قليل الارتياد؟

- نعم، فنحن نتكلّف الكثير لأجله ولسنا متأكّدين من النجاح...

والتفت الابن إلى الابنة الكبرى التي كانت تنصت بسلبيّةٍ وشكوى.

- لكنّنا على قيد الحياة، أليس كذلك يا ليونور؟ قد أترقّى مع الوقت كما قال لي مساعد المدير، عندها سأغدو مرتاحاً. أنا لا أطلب أي شيء آخر... لدينا بالفعل معارف في لاروش... ويوم الأحد لدي نصف يومي.

- لقد حصلت على كلّ شيءٍ في لا فرومنتيير.

- لا أقول لا، لكن ما تطلبه يا أبي لا يمكن أن يحصل.

وفي الغرفة المجاورة صرخ رجلٌ لم يروه آتياً:

- إذاً لا يوجد أحدٌ هنا؟ ألا يمكننا تناول الطعام؟

ومرّت إليونور، السعيدة بهذا الإلهاء، بين شقيقها ووالدها، وشمِعت تضحك لإرضاء الزبون، كما قام فرانسوا بسحب طنجرة الحساء ووضع الملعقة فيها، وقال للمزارع الذي كان مستقرّاً في نفس المكان، جالساً خلفه بالقرب من النافذة:

- لا تؤاخذني، معي ربع ساعةٍ فقط، والمحطّة بعيدة وقد يتمّ تغريمي.

وبين رشفات الحساء سأله بصوته الذي أصبح رخواً:

- لم تخبرني أيّة أخبارٍ عن روزيل... أهي بخير؟ ... وماتوران، هل ما زال مؤمناً أنّه سيتعافى؟ ... هو الذي أراد دائمًا أن يكون الآمر الناهي في لا فرومنتييز، لم يكن مضطرًا للحفاظ على أندريه...

نهض توسان لومينو على قدميه ولم يعد قادراً على لجم غضبه، وقال بصوتٍ عالٍ:

- أنتم حقّاً أبناءٌ سيّئون! ابقوا هنا في مدينتكم!

وخرج من المطبخ وعبر صالة المقهى أمام عامل المصنع الشاحب وأمام إليونور التي كانت تنتظر الطلبات. هذه الأخيرة انحنت مذعورةً وقالت:

- قلت لك إنّه لا يريد ذلك يا أبي المسكين. أعرفه جيّداً! إلى اللقاء على أيّ حال!

ومن ثمّ خاطبت فرانسوا الذي تبعه:

- هل ستذهب إذاً لترافقه إلى المحطّة؟

هزّ رأسه إيجاباً.

- حسناً، اذهب إذاً! سيكون ذلك لائقاً تماماً، وبالتالي لن يضطر إلى القول إنّنا لم نكن جيدين معه...

وفتح المرابع باب الشارع.

- سأرافقك إن رغبت. قال فرانسوا بحنق.

فرماه توسان لومينو بقوله:

- لم أطلب منك مرافقتي أيّها الابن السيئ، طلبت منك أن تنقذنا جميعاً، ولست راغباً بذلك!

في الشارع شوهد للحظةٍ يمشي باستقامةٍ وبعرض عاملين من عمّال المدينة، وشعر رأسه الأبيض يتلألأ في المطر الرمادي.

وأُغلِق الباب.

- صعب المراس، هذا الأب العجوز. قال الزبون الذي كان يتناول الطعام.

- لا تحدّثنا عنه! لقد أمرضني! قالت إليونور.

- ما الذي يريده إذاً؟

قال فرانسوا بضحكةٍ كبيرةٍ أثناء عودته إلى المطبخ:

- يريدني أن أعود لحراثة الأرض معه!

هزّ العامل كتفيه وقال بقناعةٍ:

- هل من الممكن ذلك؟ ما يزال الأمر غير معقول، دعنا نرى!

XIV

المهاجر

غريباً ومجهولاً، ومنهكاً من قضاء الليل في العربة وبالتجوّل بعد الظهر بين مكاتب الوكالة، جلس على كراتٍ من جلد الغنم المحاطة بالحديد، منتصفَ أرصفة الميناء الكبير، وانتظر ساعة ركوب الباخرة التي ستقلّه. قبالته دحرج نهر شخيلت(10) مياهه على شكل نصف دائرةٍ ولطم بها الرصيف بدوّاماتٍ عميقة، نهرٌ كبيرٌ يخرج من الضباب ناحية اليسار ومن بعدها يدخل ناحية اليمين في الضباب، بعرض متساوٍ في كلّ مكانٍ ومغطى بالسفن في كافّة أرجائه. بعينيه المتعبتين تابع أندريه هذه الأشكال المتقاطعة، المراكب الشراعيّة، البواخر، قوارب الملاحة الساحلية أو قوارب الصيد، كلّها ملوّنة بالرمادي جرّاء الضباب واليوم المنتهي، والتي اختلطت للحظةٍ ثمّ استدارت وانزلقت واتّخذت مساراتها. وعلى وجه الخصوص نظر إلى ما وراء ذلك، إلى الأراضي المنخفضة التي تلفّ النهر بثناياها، وإلى المروج المشبعة بالرطوبة، المهجورة واللامحدودة التي بدت وكأنّها تطفو على شحوب الماء. كم ذكّرته بالبلاد التي هجرها! كم كلّمته! لا دحرجة الشاحنات، ولا صفارات القباطنة، ولا أصوات آلاف الرجال من جميع الأمم وهم يفرغون السفن من حوله ويلوحون تحت الملاجئ المصنوعة من الصفائح المعدنية المنقوشة، يمكن أن يشتت انتباهه. لم يكن مهتمّا

أكثر بالمدينة الكبيرة الممتدّة في الخلف والتي يأتي منها أحيانًا، من خلال ضجيج العمل، رنين الأجراس كما لم يسمعه من قبل.

ومع ذلك دنت ساعة الصعود، وأمكنه الشعور بها من خلال القلق المتزايد بداخله. جعله صوت زحف مجموعةٍ يلتفت: هؤلاء هم المهاجرون الخارجون من الحانات حيث احتجزتهم الوكالات، وبعبورهم الساحة شكّلوا طابوراً طويلاً ورماديّاً في الضباب.

ها هم قد وصلوا. دخلت صفوفهم الأولى فعلاً بين البراميل وأكوام الحقائب المتراكمة على الأرصفة، يدوسون في الوحل ويسارعون إلى شغل أفضل أركان في مقصورات المسافرين. تبعتهم صفوفٌ أخرى، رجالاً ونساءً، شيوخاً وشباباً وأطفالاً على حدّ سواء. بالكاد يمكن تخمين أعمارهم، فلديهم العيون التعيسة نفسها، ويبدون جميعهم متشابهين كالدموع. لأجل السفر ارتدوا أسوأ ملابسهم: سترات قبيحة، كنزات محبوكة، معاطف ممزّقة، مناديل لربط الشعر، وتنانير صوفيّةٍ مرقّعة، ثيابهم التي رافقتهم وعملوا بها وعانوا معها. يصطدمون بأندريه لومينو، الساكن فوق كرات الصوف، ولا ينتبهون إليه. لا يتكلّمون فيما بينهم، لكن في مسيرهم المندفع باتت العائلات المتجمّعة تشكّل جزراً: تحمل الأمّهات أطفالهنّ بين أياديهنّ ويحمونهم من الهواء، فيما الآباء يحمونهم من الدفع بمرافقهم المتباعدة. جميعهم يحملون شيئاً ما: صرّة ملابس، أرغفة خبز، محفظة مغلقة بخيط؛ وجميعهم

لديهم الإشارة نفسها نحو المكان ذاته من الطريق. عندما يغادرون الطرقات هناك فإنّهم يصعدون قليلاً، دائماً من الجانب نفسه، نحو سهول نهر شخيلت، نحو الضباب الأكثر وضوحاً والذي يدلّ في السماء على موضع الشمس الغاربة؛ ويحدّقون، كما لو كان يخصّهم، في برج الساعة الصغير في الأفق الذي يُشرِفُ من أراضٍ غير مرئيّة. ومن ثمّ يستديرون حول الأرصفة، يتعرّفون على الباخرة البخارية والرافعات الدوّارة وجسر المهاجرين الأسود بالفعل. لذلك فهم واهنون، خائفون، كثيرون منهم يريدون العودة لكن كلّ شيءٍ أنجِز بشكلٍ جيّد. حانت الساعة، وباتت التذاكر ترتجف عند أطراف أصابعهم، وحدها الأرواح تعود إلى البلاد، إلى البؤس الملعون والمأسوف عليه، إلى الغرف المهجورة، إلى الضواحي، إلى المصانع، إلى التلال المجهولة التي تسمّى «ديارنا». وبشحوبٍ ترك المساكين أنفسهم مدفوعين بالتدفّق وصعدوا.

ظلّ أندريه لومينو ينظر إليهم لوقتٍ طويلٍ دون أن ينضمّ إليهم. كان يبحث عن وجهٍ فرنسيّ، وعندما لم يعثر عليه علق في الصفّ بشكلٍ عشوائي. بمقبض يده حمل حقيبته السوداء التي كانت نائمة قبل خمسة أيّامٍ في عليّة لا فرومنتيير. ارتدى على ظهره معطف الفرسان، والذي استُبدلت أزراره لا أكثر. رماه جيرانه بنظرةٍ غير مباليةٍ وسيقبلونه دون أن ينبس ببنت شفة. اجتاز معهم مئات الأمتار التي تفصله عن السفينة وصعد إلى السطح المنحني، ولمس الجسر الذي رُفِع جراء الموج الصاخب للنهر.

لذلك، وبينما كان الآخرون، أولئك الذين لديهم زورق أو أصدقاء في هذا الحشد، يسيرون في مجموعات على طول قفص الآلات أو ينزلون بواسطة السلالم، قام بوضع كوعهِ على الطرف في الجزء الخلفي من الباخرة، وحاول أن يرى النهر والمروج الرمادية مرة أخرى، لأن الكثير من الذكريات جاءت معه، وكادت شجاعته أن تخذله. لكن من المحتمل أن يكون الضباب قد تكثّف لأنه لم يستطع رؤية أيّ شيء.

بجانبه كانت امرأة عجوز، ما زال وجهها نضراً، ملفوفة بعباءةٍ سوداء ذات ياقة، وغطاء رأسها مثبّتٌ بدبّوسين لهما كرتان ذهبيّتان، وكانت تحملُ طفلاً بين ذراعيها وتهدهد له. لم يكن أندريه ينظر إليها، أمّا هي التي لم تستطع إراحة عينيها في أيّ مكان، في ضجيج وفوضى السفينة المغادرة، فقد رفعت نظرها في بعض الأحيان إلى ذلك الغريب الذي يقف بالقرب منها، والذي من المؤكّد أنّه يفكّر في المنزل في دياره. ربما لها ابنٌ في نفس العمر. نما فيها شعور بالشفقة، ورغم أنها كانت تعلم بلا شك أن جارها لن يفهم اللغة التي تستخدمها، فقد قالت:

- أتتألّم(9)؟

وعندما كرّرتها عدّة مرّاتٍ، فهم من كلمة «ألم» والنبرة التي تقولها بها، أن المرأة تسأله إن كان يشعر بالألم، فأجابها:

- أجل سيّدتي.

وبيدها البيضاء والباردة والرطبة بالضباب قامت الأم

العجوز بلمس يد دريو، وبكى الفوندي الشاب وهو يفكّر في اللمسات الماضية المتشابهة من الأم لومينو، والتي كانت ترتدي أيضاً غطاء رأس أبيض وتذهيباتٍ في أيّام الأعياد...

فوق أهوار فونديه يجري الضباب على الدوام، ونفسه الذي يمرّ فوق سهول نهر شخيلت، ويطارده عصف الرياح. تبع توسان لومينيو بعينيه في بعض الأحيان، بتعبير عن القلق، أطراف الخوص المرتعشة التي كانت روزيل ترفعها إليه، كما لو كانت صواري السفن المتمايلة. وفي أحيانٍ أخرى تأمّل بابنته الأخيرة لوقتٍ طويل، وشعرت روزيل أنها كانت لطيفة بهذه النظرة.

هبّت عاصفة على أشجار الدردار وشعّثتها وضربت أغصانها بسقف لا فرومنتيير، وباتت شقوق الحظيرة، والمزاريب، والسقف القرميدي، وأطراف الدعامات، وزوايا الجدران، تصفر جميعها معاً. ومضى الأنين، حيّاً ومجنوناً، إلى الأهوار.

على بعد 300 فرسخٍ مزّق صوت صفّارات الإنذار الهواء، ولاحقت مقدّمة الباخرة جريان المياه في النهر وتحرّكت نحو الأمام ببطء وهي ما تزال نصف خاملةٍ وعائمة. ارتعب المهاجرون المنبوذون من العالم القديم، والبؤس المجهول، في اللحظة التي خذلتهم فيها الأرض، وكلّ الأفكار المشتتة أخذت طريق الملاجئ القديمة. في الليل ذهب الوسيم أندريه لومينو...

ألقى المرابع كومةً من الخوص في الحوض وقال:

- لنعد إلى المنزل: لم يعد هناك ضوء نهار لأصابعي.

لكنّه لم يتحرّك قط، وحده الخادم توقّف عن تقطيع عصيّ الكستناء وغادر، فيما بقيت روزيل التي رأت أن الأب لم ينهض.

---

(10)بالهولنديّة Schelde، نهر طوله يصل إلى 350 كم نهر في شمالي فرنسا، وغربي بلجيكا، والجزء الجنوبي الغربي من هولندا (المترجم).

(9)استخدم المؤلّف عبارة باللغة الهولنديّة « U heeft pyn» والتي تترجم حرفياً: هل تشعرُ بالألم؟ (المترجم).

XV

توصية الأب

حل المساء، مساء فبراير الذي ألقى بظلاله في وقتٍ مبكرٍ جداً. لم تسمح مشربيّة الحظيرة بدخول أيّ بريقٍ مشبوهٍ مثل الرماد الذي يمحو الأشكال. أعاد توسان لومينو ذراعيه على طول جسده، وجالساً على اللوح الخشبي ورافعاً وجهه في أنصاف الظلام، انتظر الخادم ليعبر الفناء، ونظر إلى ابنته عندما رأى باب الغرفة المضاءة حيث كان ماتوران سهراناً، وقال لها:

- أما زال لديك نفس الرأي عن جان نيسمي يا روزيل؟

رفعت الصغيرة الراكعة على الأرض، بظلّها المتناهي بصغره، رأسها ببطء، ومالت إلى الأمام لترى بشكلٍ جيّدٍ من كان يتحدّث معها بهذه النبرة المختلفة. لكن ليس لديها ما تخفيه، ولم تكن من اللواتي يخفن، بل اكتفت بإمساك قلبها، الذي ودّ أن يصرخ بكلّ شيءٍ دفعةً واحدة، وقالت بهدوءٍ واضح:

- لطالما أعطيته حبّي، وهو ما لن أتراجع عنه، لكن الآن بعد رحيل أندريه أدركت أنّه لم يعد بإمكاني الرحيل صوب بوكاج. لذا لن أتزوّج، سأبقى فتاةً وسأظلّ في خدمتك.

- إذاً لن تتخلّي عنّي مثلهم؟

- أبداً يا أبي، مطلقاً.

وضع الأب يده على كتفها فشعرت أنّها مغمورةٌ بحنانٍ مجهول. ثمّة امتنان انتقل من روحٍ إلى روح. ومن حولهما كانت الريح مستعرة وجاريةً تحت المطر.

وتابع المرابع:

- لم يعد لديّ المزيد من الأبناء يا روزيل، وأندريه آخر من خانني، فيما لم يرغب فرانسوا بالعودة. ومع ذلك، أفلا ينبغي أن تبقي لا فرومنتيير على اعتبارها لنا؟

فأجابه الصوت الناعم الحازم:

- ينبغي ذلك.

- لذا يا صغيرتي سترنّ أجراس عرسك. قال لومينو.

تجرّأت روزيل على عدم الفهم، وعلى ركبتيها دنت قليلاً حتى لامست أباها. ودّت لو يعود النهار ليضيء العينين اللتين تراها، لكن لم تعد الرؤية ممكنة.

وتابع المرابع:

- دائماً ما تمنّيت أن يكون هناك رجلٌ من صلبي ليتسيّد من بعدي، لكن الله رفض لي ذلك. وددتُ يا روزيل أن أزوّجك من ماريشي مثلنا، شخصٍ من ثوبنا وبلادنا، وربّما ذلك من دواعي الفخر، لكن الأمور لم تسر حسب رغبتي. أتعتقدين أن جان نيسمي سيعود إلى لا فرومنتيير؟

- أنا متأكّدة من ذلك! سأجيبه على رسالته: سيعود!

- والأم، ألن تهيننا على الأقل؟

- أبداً، فهي تحبّ ابنها وتعرف كلّ شيء... ولكن ماتوران!

...

وأرجعت ذراعيها للخلف باتّجاه المنزل المختبئ في الظل.

- ماتوران لا يريده أبداً! إنّه يمقتنا! سيجعل حياتنا صعبةً لدرجة أنّنا لن نتمكّن من البقاء هنا.

- لكنّني ما زلت على قيد الحياة يا صغيرتي، وأريد لمّ شملكم أنتم الثلاثة من حولي!

هل سمعت روزيل بشكلٍ صحيح؟ هل قال الأب كلمات الخطوبة هذه؟ أجل، فقد وقف على قدميه، وأثناء نهوضه ساعد ابنته على النهوض. أبقاها بالقرب منه: طوّقها بين ذراعيه وبكى، ولم يعد باستطاعته الكلام.

ومع ذلك، ولكي يشدّ على هذا الشباب السعيد قبالة قلبه، استعاد شجاعته وقال:

- لا تخافي من ماتوران، سأتناقش معه وعليه أن يطيع. طردتْ جان نيسمي، وإرادتي الآن أن يعود ليكون ابني ومساعدي، والسيّد عندما لا أعود على قيد الحياة.

وأنصتت الشابّة في العتمة.

- أريده أن يعود في أسرع وقتٍ ممكن، لأنّ أفضل الخدم لا يجعلون البيوت تزدهر. فكّرت بكلّ شيءٍ من أجلك يا روزيل. ستخرجين من هنا وتذهبين مباشرة إلى منزل

الشقيقتين ميشلون.

- أجل أبي.

- هذا سيمنحني الوقت للتحدّث مع أخيك. لذا ستمضين نحو الشقيقتين ميشلون وتقولين لهما: «لا يستطيع والدي مغادرة لا فرومنتيير وترك ماتوران الذي ليس على ما يرام في هذه الأيّام، لذا فهو يطلب منكم أن تغادرا نحو بوكاج، وأن تطلبا من والدة جان نيسمي لتعيد لنا ولدها الذي سيكون زوجي. وكلّما بكّرتم في الرحيل كلّما كان ذلك أفضل».

وبدورها بكت روزيل، وتابع توسان لومينو:

- انطلقي يا حبيبتي روزيل... سلّمي على الشقيقتين ميشلون، وأخبريهما أنّ هذا لإنقاذ لا فرومنتيير.

وأجابت بنفسٍ من الصوت:

- حسناً.

رفعت روزيل ذراعيها نحو رقبة والدها، وجذبت المرابع العجوز وعانقته. ومن ثمّ تنحّت جانباً قليلاً، وقالت من خلال الظلّ بحيث لم يتمكّنا من رؤية بعضهما البعض:

- إنّني سعيدةٌ جدّاً يا أبي، فأنا ذاهبة إلى الشقيقتين ميشلون. لكن كم سيغدو الأمر أجمل لو تمكّنت من دعوة أهلنا إلى حفل زفافي.

وفرّت في الليل، فيما بقي الأب للحظةٍ سعيداً وفخوراً بشدّة. تلك الصغيرة روزيل قالت «أهلنا»، تكلّمت كما يتكلّم

كبار السن من بني جلدتها، أولئك الذين تولّوا مسؤوليّة لا فرومنتيير. تشبّهت بأجدادها الذين لم تعرفهم، بربّات البيوت اليقظات اللائي شوهدن لذلك، منذ يوم خطوبتهنّ، سعيداتٍ وقلقاتٍ بهدوء، ويحملنَ بداخلهنّ، ككتابٍ لا يتوقّف المرء عن القراءة فيه، فكر العائلة بأكمله والاهتمام بالمزرعة كلّها.

ركضت روزيل على طول الطريق ولم تتعثّر بالحجارة، وكانت تمطرُ ولم تشمّ رائحة المطر. وضعت يدها على قلبها لتهدئته وقالت في نفسها: «أنا سعيدة»، وهو ما أبكاها.

بدت جميع المنازل في سالِرتِن مضاءةً خلف زجاج نوافذها عندما دخلت روزيل الشارع الطويل، غير أنّ الشقيقتين ميشالون الرعديدتين دفعتا المصراع ووضعتا القفل.

- أوه! قالت وهي تطرق الباب بقبضتها. افتحا بسرعة يا خالاتي ميشلون.

سرعان ما اضطرّت فيرونيكا إلى سحب القفل وفتح الباب، ومن ثمّ إغلاقه على الفور، وهتفت:

- كم أنت مبلّلة يا روزيل، وبدون رداءٍ أو منديل رأسٍ في مثل هذا الطقس! لتوّها دقّت الساعة السابعة: ما الذي يجعلك تركضين على الطرقات؟

أخذت الأخت الكبرى الشمعة ووجهتها نحو وجه روزيل، ورأت آثار الدموع:

- إذاً أهذه الدموع من الحزن أيضاً يا صغيرتي؟

- أبداً يا خالاتي، بل من الفرح.

- إذاً لنجلس، وتحدّثي بسرعة!

وجلست الشقيقتان ميشلون على الصندوق وأجلسا روزيل على كرسيّ قريبٍ وقبالتهما تماماً، وذلك ليحكما حكماً صائباً على الفرح الذي كانت على وشك التحدّث عنه. كلٌّ منهما أخذت يداً من يدي ابنة الأخت، وكلاهما أصبحتا منتبهتين. تزورقت الوجوه الثلاثة من بعضها، وأضاءت الشمعة بدرجةٍ كافيةٍ أمكنت من رؤية الابتسامة على الشفاه أو في العيون.

- الأمر هو أنّ والدي، والذي لم يعد لديه أبناء، يريد عودة جان نيسمي. قالت روزيل.

- صديقك المقرّب يا روزيل؟ كيف ذلك؟

- لإنقاذ لا فرومنتيير يا خالة ميشلون.

- إذاً ستتزوّجين يا عزيزتي؟ ستتزوّجين؟ قالت أديلايد متحمّسة ونصف ناهضة، فيما أختها، على العكس منها، قد انحنت لإخفاء انفعالاتها.

- أجل، وقال أبي: لو تودّون مساعدتي.

- لو وددت! أنت تعرفين جيداً، أنت ابنتي ويمكنك أن تطلبي ما تريدين. لكن قولي لي، أتحتاجين نقوداً؟

- لا يا خالتي...

- جهاز عروس تخيطه كلتانا معاً؟

- الأمر أصعب بكثير. قالت روزيل. عليك أن تسافري برحلةٍ كبيرة.

- أنا؟ رحلة؟

- أنت أو خالتي فيرونيكا. عليك الذهاب إلى ريف بوكاج، فأبي لا يمكنه مغادرة المنزل. عليك الذهاب للتحدّث مع والدة جان نيسمي من أجله وتجعليها تقرّر حرمان نفسها من ابنها. أتودّين ذلك؟

وعلى الفور جلست فيرونيكا.

- اذهبي إلى بوكاج يا أديلايد، فأنت أكثر نشاطاً منّي!

- أهذا سبب؟ من دواعي سروري أن أكون في خدمة روزيل، فلمَ لا تذهبين أنت؟

- أنت الأكبر سنّاً يا شقيقتي، وستحلّين محل الأم.

- حقيقةً. قالت أديلايد ببساطة.

ظلّت لبعض الوقت صامتةً ومتأثّرةً بالخبر وبالقرار، وشحُبَ خدّاها الورديّان وأضافت:

- هذا لأنّني منذ أربعين عاماً لم أبرح بلدة شالان... لم أنوِ السفر منذ ذلك الحين... أين يقع بلد جان نيسمي؟

وبوجهٍ مشرقٍ، جرّاء الذكريات التي راودتها، لمست روزيل فستان ميشلون الأسود ثلاث مرّاتٍ بطرف إصبعها وقالت:

- هنا مزرعة نوزيّاك حيث يعمل، وهناك أبرشيّة اسمها لا

فلوسلييز، وهناك شاتولييه حيث لو شاتو، موضع منزله.

- لم أسمع بهذه الأسماء مطلقاً يا عزيزتي.

- التلال في كلّ مكان، صغيرة وكبيرة، ومليئة بالأشجار، وعندما تهبّ الرياح من سان ميشيل فهي تمطر دون أن تضيع. بوزاغ ليست بعيدة جداً.

- سمعت عن سان ميشيل وبوزاغ في طفولتي المبكرة من قبل البوكينيين الذين كانوا يأتون إلينا للبحث عن الرماد. متى ينبغي عليّ أن أغادر؟

فأجابت روزيل مخفضة عينيها الوديعتين:

- والدي في عجلةٍ من أمره: قال كلّما كان ذلك أبكر كلّما كان أفضل.

- سيّدي الرب! ربّما لا أستطيع ذلك الليلة. مع ذلك انظري إلى الساعة يا فيرونيكا، فأنت من ترين بوضوح.

نهضت الصغرى وركضت ببطءٍ نحو أسفل الصندوق العالي الموجود بين السريرين، وفكّت شيفرة الوقت بصعوبةٍ على القرص النحاسي:

- تأخّر الوقت يا شقيقتي، فآخر قطار لشالّان مرّ للتو.

- إذاً سأسافرُ غداً صباحاً. قالت أديلايد... لديّ أرجلٌ جيّدة للمضيّ نحو كاترمولان، ولسانٌ جيّدٌ لأسأل موظّفي محطّة شالان عن وجهتي بعد ذلك... سأذهب... طيلة مدّة الرحلة سأفكّر فيك يا روزيل، وعندما تراني الأم نيسمي –

ستجدينني مغرورةً – لن أشعر بالحرج... سأتحدّث عنك لها... آه! أجل سأخبرها الكثير... لماذا نهضتِ يا صغيرتي؟

- كي أعود إلى المنزل خالة ميشلون!

ضحكت المرأتان العجوزان ميشلون وأجابتا على عجلٍ، واحدةً تلو الأخرى، بحيث رمت كلّ واحدةٍ منهما جملة:

- لا، على سبيل المثال! لم ترو لنا شيئاً! كيف قدّم والدك هذه الفكرة إليك؟ ماذا تعرفين عن فرانسوا؟ وبماذا يفكّر ماتوران؟ ابقي يا جميلتي، وأخبرينا عن كلّ هذا، وعمّا ينبغي قوله لجان نيسمي!

وكسربٍ من الأحجال المتراضة في ثلم، ريشة قبالة الريشة، عندما هبط الليل على الحقول، اجتمعت النسوة الثلاث مرّة أخرى، متراصات بشدّةٍ، في الجزء الخلفيّ من المتجر. وانتقلت الكلمات، النظرات، الابتسامات، إيماءة اليد، الدموع أحياناً وكلّ ما يُبرز الروح، من واحدةٍ إلى أخرى ووجد أصداء. طفت همسة سعيدة في غرفة المرأتين الكبيرتين، وأثارت حمّى خفيفة أديلايد، فيما كان فيرونيكا قلقةً من البقاء وحيدةً دون أن ترغب في قول ذلك. مرّ الوقت، وقال الجيران وهم يطفئون مصابيحهم: كم تأخّرت الآنستان ميشلون في السهر! العمل يعطي في مهنتهما!».

أمست القرية صامتة ومظلمة بكاملها، في المطر الذي بات جليديّاً، عندما فارقت روزيل خالتيها على سلّم الزاوية، وعلى كلا الجانبين تكرّرت الكلمة ذاتها بمثابة وداع. قالتها أديلايد

أوّلاً، وكرّرتها روزيل. كانت وعداً، وكانت تشكّراً.

- غداً صباحاً!

- غداً صباحاً!

XVI

ليلة فبراير

عندما عبرت روزيل الساحة وسلكت طريق سالرتن، خرج المرابع من الحظيرة، ووجد الخادم الذي أزال القدر عن النار وجلس تحت الإفريز صامتاً كالعادة، وبطرف نعليه الكبيرين يجمع الجمرات نصف المنطفئة الراقدة على طول حوامل الموقد(11). وفي الجزء الخلفيّ من الغرفة كان العاجز يجاهد بين عكازيه متنقلاً بين قطع الأثاث، غير قادرٍ على التحكّم بأعصابه ووجهه منتفخٌ باندفاع الدم. لم يحيّ والده، ومن الواضح أنّه لم يسمعه آتياً، ولكن بعد دقيقةٍ سأل بحدّةٍ فيما كان المرابع قد انحنى نحو الخادم وتحدّث معه بصوتٍ منخفض:

- وروزيل؟ ما الذي قلته لها كي تبقى في الحظيرة طيلة هذه المدّة؟

وقبل أن يجيب، تبع توسان لومينو بعينيه الشقيّ الذي استمر في الانفعال، فريسةً لضربٍ من الثمالة المكوّنة من الغضب والمعاناة، وهو ما كان معروفاً في لا فرومنتيير بشكلٍ جيّد. منذ أن غادر أندريه وأعراض الأزمة في ازدياد. أشفق عليه المرابع، ولم يرغب في إثارة وقاحة السؤال، فقال ببساطة:

- ستعود أختك لاحقاً يا ماتوران. أين هي؟ أنا من أرسلتها.

لكنّ العاجز بصوته العالي والغاضب أجاب:

- ليس عليّ معرفة أين هي، أليس كذلك؟ هنا كلّ شيءٍ يُخفى عني ويقال لها!

وبإشارةٍ من المرابع قام الخادم بأخذ حبتي بطاطا من القدر بسكينه ووضعهما في أسفل جيب سترته، ومن ثمّ نهض وقطع قطعة خبزٍ على المنضدة وذهب إلى الفناء حاملاً عشاءه.

أمسى الأب والابن وحدهما، وللتو قال توسان لومينو وهو يقف على ضوء النار المنبعثة:

- بل على العكس من ذلك، ستعرف كلّ شيء. لقد رفض شقيقك فرانسوا العودة إلينا يا ماتوران!

- ظننت ذلك!

وانزوى العاجز بين السريرين والصندوقين، بعيداً عن الضوء المتوهّج في نهاية الطاولة، وهناك في الظلّ استمع كما لو كان يبحث عن الكلمات. وكانت يداه المرتعشتان على طول العكّازين تلوّحان بالستائر.

وتابع المرابع:

- لا يمكن إبقاء لا فرومنتيير على هذه الحال. لذلك طلبت من روزيل الذهاب والعثور على الشقيقتين ميشلون، وستذهب إحداهما أو الأخرى، أديلايد أو فيرونيكا، إلى بوكاج لإعادة جان نيسمي.

- آه! ستزوّج روزيل؟

- أجل يا صديقي.

- للخادم الذي قمت بطرده!

- سأعيده.

- بوكيني! رجلٌ ليس من هذه الديار!

- إنّه عاملٌ ممتاز يا ماتوران، وقد أحبّ أرضنا على الدوام.

- وسيقطن في لا فرومنتييير؟

- بلا شك: أنا بحاجةٍ إلى مساعدة، أنا بحاجة إلى ابن.

وبرز رأس ماتوران الأصهب في الظل وصاح:

- وأنا؟ ما الذي ستفعله بي؟

وفي نظرته كابدت كلّ الآلام في صمت، وكل الغضب الذي احتواه من قبل مضى وألقى باللوم عليه.

- إذاً ما عليّ سوى أن أتألم وأفعل إرادة الآخرين؟ أنا الأكبر، وأنا من لي الحق؟

- ستعيش معنا كما حالك الآن يا بني. قال الأب بهدوء. ستفعل ما تستطيع ولن يلومك أحد على ذلك؛ لن نقوم بأي عمل دون إبداء رأيك، أعدك بذلك؛ ولن تغادر المزرعة حتى من بعدي.

- لا، لن يتسيّد عليّ رجلٌ لا يحمل اسمي: ينبغي لفردٍ من

عائلة لومينو أن يصبح السيّد هنا.

- أنت تتحدّث عن وجع حياتي يا ماتوران.

واستمرّ ماتوران بالقسوة نفسها:

- تحمّلت فرانسوا وحتى أندريه، لكن روزيل وزوجها البوكيني لن يكونا هنا سادة أبداً: أنا في داري! وأقول لك إنّه دوري الآن!

- لكنّك لن تستطيع ذلك يا ابني المسكين!

اهتزّت الستائر المنسوجة، وخطى الشقي المختنق بالغضب خطوتين بألم، ومن ثمّ خطوتين أخريين.

- أفلا أستطيع الحكم على الحصاد؟

- بلى.

- أفلا يمكنني شراء زوجين من الثيران؟

- بلى.

- أفلا أستطيع أن أُحملَ في عربة، وأن أقود الزورق بنفسي؟ لم لا تقول ذلك؟

- بلى يا بني.

- إذاً ما الذي أحتاجه للإشراف على مزرعة؟ خدم؟ سأستأجر مرابعة؟ ...

لم يجرؤ الأب على قول نعم.

- سأحضر واحدة!

توقف ماتوران عند زاوية الطاولة واتّكأ عليها، وكان الجزء العلوي من جسده يتأرجح ويجاهد للحفاظ على توازنه.

- امرأةٌ لديها قلبٌ أكبر من قلبك! ... هي تعلم أنّني سأتعافى... وعدتني أنّها ستتزوّجني كما أنا عليه عمّا قريب... عندما أقرر...

- لا تثق بما تقوله لك الفتيات يا ابني المسكين. لم يعد هناك آباءٌ وأمّهاتٌ يعتزّون بمن هم في حالتك... أنت مريض الليلة... انتظر، ساقاك مرتخيتان... استلقِ، سأساعدك...

لم يحاول العاجز الإجابة. غامت عيناه وانحنى رأسه على كتفه، وانزلقت ذراعاه على دعامة العكازين اللذين كانا واقفين بشكلٍ مستقيمٍ كعكّازي رجلٍ يسقطُ وينادي. كاد ماتوران يسقط إلى الوراء لولا قفز المرابع إلى الأمام لإسناده...

لم يدم الدوار طويلاً، فقد كان تنبيهاً لبضعِ ثوانٍ فقط. بالكاد كان ماتوران مستلقياً على الصندوق عند أسفل السرير، وفتح عينيه مرّةً أخرى. نظر إلى والده وقام دون مساعدة، وقال، واضعاً يده على قفا رقبته:

- كما ترى، لا شيء يذكر... إنه الألم الذي سببته لي... لست مريضًا.

كل غضبه ذهب، لكن الألم ما زال هو نفسه في أعماق

العينين، مختلطاً بنوعٍ من الخوف الذي يرويه الرجال من جوار الموت.

- هل تريدني أن أساعدك؟ كرر المرابع. فهز المقعد كتفيه وبدأ يخلع ملابسه بنفسه، وخلع سترته وطواها على الصندوق.

- لا، أريد أن أنام بمفردي... أريد أن أكون هادئًا.

وكان الصوت مرتجفاً كاليدين.

- اذهب بالأحرى لمقابلة روزيل... لديها أخبارٌ تخبرك إيّاها... ومن ثمّ فإنّ الليل مظلمٌ، والطرق غير آمنة...

لم يقاوم توسان لومينو، وهو الذي يعلم خطورة إغضاب ابنه في ساعات الأزمة هذه.

- سأذهب وصولاً إلى الطريق يا ماتوران، وسأبلّغ الخادم بأنّ يظلّ في المخبز.

لم يذهب إلى الطريق حتى، فقد كان قلقاً. في طريق لا فرومنتييير مشى تحت المطر بضع مئاتٍ من الأمتار، وكرّر خطواته، إذ لم يرغب بالظهورِ ثانيةٍ في الغرفة بسرعةٍ كي يعطي ماتوران وقتاً ليهدأ، ودخل إسطبلاته كي يتفقّد البهائم، ولكي يعرف ما إذا لم تقم أيّ واحدةٍ منها بقطع حبلها.

لكن خلفه، ودون أن يشك في ذلك، هرب ماتوران. لم يكن المرابع قد تجاوز عشر خطواتٍ خارج نطاق لا فرومنتييير حتى انسلّ المقعد نحو الفناء، وأغلق الباب خلفه بعنايةٍ

واستدار نحو البيدر ليصل إلى المرج عبر المعبر.

عضّدته طاقته الهائلة وسخط أعصابه. ثقة فكرة مجنونة، لكنّها تتكوّن من كلّ بؤسه وأحلامه، ألقت به في هذه الليلة السيّئة وهذه المغامرة. ركض نحو الخطيبة المفقودة، ومن كلّ الرفض، وكلّ الإهانات وكلّ الآلام، ناشد تلك التي كانت الحكم في حياته والتي ما زالت كذلك. أراد أن يقول لها: «لم يعد لديّ سواك، فالجميع يتخلّون عنّي. قولي إنّك تحبينني، وبالنسبة لي لن أكون مُحتقراً بعد الآن. أنقذيني يا فليسيتيه غوفري!».

وسار بسرعةٍ على الطريق التي تلفّ المنتزه، وذلك على الرغم من الليل والأرض الزلقة والسلّمين اللذين لا بدّ من عبورهما. ومثل الأطفال الخاطئين، خائفاً من اتّباعه، كان يستدير ويرهف أذنيه ليستمع من مسافةٍ إلى أخرى. جلبت له الريح صوت الأرض، لكنّه لم يكن سوى أزيزٍ عاصفٍ في مكانس أشجار الدردار، ونغماتٍ متدفّقة للمطر على القرميد، ودحرجة قطار يجب أن يكون قد مر بعيدًا جدًا نحو شالّان.

نزل ماتوران منحدر المروج، وبسبب الظلام توجّب عليه تتبّع خطواته مرّتين ليجد ترعة الري. ألقى بنفسه في أوّل زورقٍ لمسه بطرف عكّازه، ودفعه بضربةٍ من المجذاف، ليس نحو القناة التي تجري مباشرةً صوب بيرييه وسوليير، بل نحو اليسار، نحو خندقٍ نادراً ما يستخدمه المزارعون.

تجمّعت المياه في قاع المركب، وهي التي تسرّبت من خلال

شقوق الألواح مع كلّ اهتزازٍ وبلّلت أرجل العاجز الرابض. غير أنّ الأخير لم ينتبه. ما الذي فعلته المياه التي تجري فوق قدميه، والأمطار الجليدية المتساقطة، والظلام، وتراكم العشب الذي سد الممر في أماكن كثيرة، وطول الطريق، والإرهاق؟ كان عليه أن يصل إليها هناك حتى لو اضطر إلى بذل كامل قوّته، إذ ينبغي التحدث إليها دون شهود على الفور.

بدا الظلّ قاتماً لدرجة أنّ ماتوران لم يتمكّن من رؤية قاربه. منذ غروب الشمس والريح تراكم الضباب في الأهوار، وبدا المدى له، فقد غطى فراسخ الريف بكتلته المتحرّكة. كانت أدنى هذه السحب تسير على المروج المغمورة بالفيضانات، فوق السدود والجزر التي تمتلكها أطيافها غير الصحية؛ وتدفقت في قطراتٍ سامّةٍ على طول أشجار الحور، والقصب، وسقوف القش، وأمواج قاع المدّ الهائل حيث تجرّع الأشخاص المدفونون الحمّى دون أن يتمكّنوا من المقاومة.

وفي هذه الليلة الخطيرة، والتي كان ماتوران فيها بقبضة الشرّ بالفعل ورأسه معقلّ بالدم، بدا منهكاً وهو يقود الزورق. ألقى بنفسه يمنةً ويسرةً كما يرى الأمر مناسباً ودون أن يتأكّد من طريقه، وفي بعض الأحيان فقد القدرة على التنفّس، كما استحوذ عليه الضعف. مال جذع المجدّف إلى الأمام في القارب غير المتحرّك، ومن ثمّ اضطرب العاجز وهو يخرج كأنّه خارج من نومه، وشعر ببرد الليل واستأنف مسيره.

وعندما تقدّم نحو الجزء الأكثر وحشةً في الأهوار تجمّعت الظلال حوله، وعلت الطيور مع حفيف القصب بأعدادٍ كبيرةٍ متزايدة، فقد كان وقت مرورها، ومطلقةً صيحاتها المؤثّرة والكئيبة طارت طيور الدحروج، والبرنقيل، والأسقطور، والزقزاق والشنقب، وعادت على شكل مجموعاتٍ لا مرئيّةٍ تحوّلت من حافّة الزورق إلى رأسه وارتدّت في موجات الضباب الجليديّة. وفي كلّ مرّةٍ كان العاجز يرتجف، وقال في نفسه: «ما الذي لديك لتصرخي في وجهي كثيراً يا طيور الشؤم؟ ... دعيني... أنا ذاهبٌ لرؤية فليسيتيه... ستوافق... سنجدّد عرسنا... وسنعيش في لا فرومنتييير».

لكنّ القوة أخذت تخور، وتدريجيّاً تسرّب الشعور بالتخدّر وتباطأت الحركة. لم يعد ماتوران قادراً على الرؤية، واستمرّ في ضرب المنحدرات عشوائيّاً بطرف مجذافه الذي لم يعد يعرف أين يلامس. وفجأةً في المياه المفتوحة، في مرجٍ مغمور بالمياه حيث تسرّب الماء من خلال ضغط مدّها، لم يعد القارب يتحرّك. تركت الأصابع المجذاف الذي سقط، واتّسعت العيون جراء الرعب، وشعر العاجز بالموت يرتفع من ساقيه إلى دماغه، فانتصب ونادى في الليل بصوتٍ هائل:

- فليسيتيه؟ أيّها الأب؟

ومن ثمّ تأرجح الجسد للحظة، وبدأت اليد ترسم إشارة الصليب، وسقط الرجل فاتحاً فمه على طول ألواح الزورق...

وفي متاهة الخنادق ثمّة زورقٌ آخر بأقصى سرعة، وفي

مقدّمته الكاشطة للمياه غلّق فانوش بعصا، نجمٌ صغيرٌ يفتّش القنوات، يتمايل مع حركة السير ويهتزّ بحركة الريح. اكتشف الأب فرار ماتوران وذهب للبحث عنه. ومن حوله أيضاً انتشرت الطيور، ومرّت أجنحة بيضاء في شعاع الضوء. وهمس المرابع: «أيّها الأوباش، أخبروني أين هو؟» لكن ما الذي قالته آلاف الأصوات المستجيبة؟ عند كل مفترق طرق للقنوات صعد على ظهر زورقه، واستدار على التوالي نحو جهات السماء الأربع، وصاح باسم ابنه بكامل قوّته. مرتان، من أعماق العتمة، سأله الصيادون العائدون إلى كتلهم الخضراء، والمزارعون الذين فتحوا نوافذهم:

- ما الذي تريده؟

- ولدي!

لم تقل الأصوات شيئاً.

وفي المرّة الثالثة اعتقد توسان لومينو أنّه سمع صرخةً خافتةً جدّاً، بعيدة في الضباب، واستدار نحو اليسار تاركاً القناة التي تذهبُ مباشرةً نحو بيرييه. ظلّ ينادي من مسافةٍ إلى أخرى دون أن يسمع شيئاً، وخوفاً من أن يسلك الطريق الخطأ أخذ الفانوس وقرّبه نحو الأطراف ليجد أيّ أثرٍ لمجذافٍ، إن كان موجودا. وعلى بعد بضع مئاتٍ من الأمتار رأى أثر ضربةٍ في الوحل، ومن ثمّ اثنتين، ثمّة زورق مرّ من هنا. هل هو زورق ماتوران؟ تبع آثاره. لقد قام الزورق بدورةٍ كاملةٍ حول المرج، لكن من أيّ طرفٍ خرج؟ في الخنادق

التي كانت مقطوعة، في الزوايا، أمكن للمرابع البحث، ونشر القصب والعودة. كانت الآثار قد اختفت، وكان على وشك العودة عندما رأى على ضوء فانوسه لوحاً خشبيّاً طافياً. انحنى وثمّة هاجسٍ من شؤمه قد استولى عليه؛ إنّه مجذافٌ من لا فرومنتيير وقد انجرف مدفوعاً بالريح نحو المكان الذي فيه يتصل الخندق، فوق المنحدرات المغمورة، بالمرج الذي تحوّل إلى بحيرة. اعتقد المرابع أن الزورق قد انقلب بابنه.

- تماسك يا ماتوران! صاح توسان. أنا قادم! تماسك!

ورفع الزورق بضربة مجذافٍ ودفعه إلى القناة.

- أين أنت يا ماتوران؟

وفي هدير الأمواج، قطع مسافة ثلاثين متراً في المياه المفتوحة واندفع إلى الأمام بشكلٍ فجائي. انحنى ومدّ ذراعيه، وتحسّس مؤخّرة قاربٍ مختبئٍ على متنه. ثم أدار الفانوس ورأى، مستلقيًا على جنبه أسفل زورق المزرعة الآخر، ابنه الذي لم يعد يتحرك.

جثم توسان لومينو على ركبتيه فوق اللوح الخشبيّ الذي مال نحو مستوى الماء، ولمس صدغي ابنه فلم يكونا نابضين، فأخذ يديه فكانتا متجمّدتين، عندها وضع فمه على أذن ماتوران وناداه مرّتين متوسّلاً:

- أجبني يا بني! أجبني! فقط حرّك إصبعك لتريني أنّك تسمعني!

غير أنّ أصابع الابن لم تتحرّك، وفي لحيته الصهباء بقيت الشفتان متيبّستين، منفرجتين بآخر صرخةٍ من الروح التي هربت.

- يا ربي! قال لومينو وهو ما زال جاثماً. لا تدعه يرحل قبل عيد الفصح! لا تدعه يموت!

وعلى الفور خلع سترته ورماها على أكتاف ابنه وصدره، وأحاطه به كما لو كان غطاء سرير، وتخلّى عن زورقه ودفع الآخر خارج المرج، ذاك الذي يحمل ماتوران. دعمه القليل من الأمل وأعطى القوة لذراعيه الهرمين. لا بد من إيجاد مساعدة. واقفاً وساعياً إلى توجيه الزورق في هذا الليلة الداكنة، أكمل الأب طريقه لبعض الوقت قبل أن يلمح ناراً من مزرعة، ومن ثمّ اخترق شعاعُ ضوئيّ الضباب لجهة اليمين. عندها اندفع الزورق بسرعة واقترب من مصدر الضوء متتبّعاً الخندق، بحيث أمكن للمرابع أن يتعرّف على المزرعة من خلال تصميم الأبواب والنوافذ المضاءة. واحسرتاه! إنّها لا سوليير، ومن فيها ساهرون، وأصوات الضحكات والأغاني والنغمات اللاذعة للأكورديون تطفو حول الجدران وتنتشر في الريح. سار المرابع بمحاذاة الكتلة البنيّة وعبرها، ولكن بينما كان يجدّف بكلّ طاقته وسرعته، راقب ما إذا كان الظلّ العظيم الذي هو ماتوران لم يتحرّك، وعندما رآه جامداً قال في نفسه: «لقد مات ابني!».

على بعد خمسمئة مترٍ وعلى الضفة الثانية للقناة، عرف

أنّ هناك منزلاً آخر فسارع نحوه، وذلك لأنّها هذه المرّة كانت أرض آيمون، مزرعة صديقه ماسونو لو غلوريو. وسرعان ما ربط المزارع سلسلة زورقه حول شجرة صفصاف، وهبط وركض إلى الباب وهو يصرخ:

- غلوريو! غلوريو! أنجدني!

بين مزرعة أرض آيمون والصفصافة المربوط فيها القارب، وعلى المنحدر الموحل من الربوة، سرعان ما أُنيرت الأضواء واندفع الرجال والنساء وهم يتأوهون، يبكون، ويصلون بأصوات خافتة. بات المنزل النائم بكامله على قدميه خلال لحظة، وتجمّع أفراده بالقرب من الضفّة. أراد ماسونو نقل ماتوران إلى الغرفة والإرسال بطلب طبيب شالان، لكنّ توسان لومينو، بعد أن نظر مرّةً أخرى إلى جسد ابنه ولمسه، أجاب:

- لا يا غلوريو، فقد انتهت المعاناة بالنسبة له: أودّ أخذه إلى لا فرومنتيير.

عندئذٍ التفت مرابع أرض آيمون إلى شابين يقفان في الخلف، وكانا متكئين على بعضهما البعض ورأساهما البنيان يتلامسان، وبدا الأمر وكأنهما ينظران إلى الموت لأول مرة. فقال لهما:

- اذهبا وأحضرا زورقنا الكبير يا أبنائي.

واختفيا في الضباب وهرعا لإحضار القارب الموجود في مرجٍ بالقرب من لا سوليير، وأبلغا الموجودين في السهرة

أثناء مرورهم.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة عندما وُضع جسد ماتوران لومينو بإجلالٍ، بأيدٍ ودودةٍ، في زورقٍ كبيرٍ يُستخدمُ لنقل العلف، والذي لطالما شوهد عائداً بين المروج محمّلاً بالتبن الطازج، وعلى رأس تلة التبن يغنّي أحد أبناء أرض آيمون. وُضِع في المنتصف وغطّته الأم ماسونو بملاءةٍ بيضاء غلّق عليها صليب نحاسيّ. جلس توسان لومينو في الخلف عند موضع رأس ابنه، وفي المقدّمة وقف ابنا غلوريو متّكئين على مجذافيهما، وعند أقدامهم أضاء المجذفين والطريق فانوسان.

انفصل الزورق عن الضفّة وسط التأوّهات، وسار ببطءٍ فوق القناة اليمنى، وكانت الريح تدفع ضباب الأهوار نحوه.

وعندما بات على مسافةٍ قصيرةٍ من لا سوليير صاح صوت:

- ها هم! إنّني أسمع المجاذيف وأرى الأنوار.

فُتِحت أبواب الغرفتين، وانتشر ضوء المصابيح في الخارج وأضاء التلّة التي بني عليها المنزل بشكلٍ مبهم، فباتت بعض الأشجار على حافة الخندق شقراء بكاملها في الليل. وكلّ الذين كانوا ساهرين لدى عائلة غوفري، شبّاناً وشابات، نزلوا في موكبٍ طويلٍ إلى الضفة ليحيّوا المحنة العابرة، وبهرجٍ ومرجٍ في أزياء المناسبات، راكعين في الوحل ومآزرهم أو قبّعاتهم مهتزّة بسبب الريح، شاهدوا بصمتٍ الملاءة البيضاء التي تخفي جسد العاجز، والذي يكبرهم ببضع سنوات،

وكذلك لومينو العجوز في الخلف، مائلًا تماماً وجبينه قريبٌ من ركبتيه، وهامداً مثل ذاك الذي يحملُ بعيداً.

في الصف الأخير كان هناك فتاة طويلة لمع منديلها الأزرق وسلسلتها الذهبية بالشعاع القريب المفلت من النافذة، وقد أسندها اثنان من رفاقها، راكعين مثلها.

جميعهم ظلّوا صامتين، جميعهم استمرّوا في متابعة الزورق الذي يغادر وينسلّ في الليل تدريجياً. خفتت ضوضاء المجاذيف الملامسة للمياه وتلاشت ارتجافات أثر إبحار الزورق، وفي الضباب المتكاثف بسرعةٍ لوحظ أنّ بياض الملاءة يتضاءل. ومن ثمّ لم يعد يرى سوى بصيص دون موضع، هالة خافتةٌ من الفوانيس فوق المروج. وسرعان ما خرج شيء من العتمة حيث غطس القارب.

«لومينو الكبير المسكين، أجمل أبنائنا!».

وفي الأهوار البعيدة، حيث لم تعد شفقة الأشخاص ترافقه، بكى الأب وهو ينظر من تحته، ومن ثمّ بكى أيضاً عندما رفع رأسه ورأى الشابين الوسيمين المخلصين لمزرعتهما، ومنتبهين لوضعيّة مجذافيهما، وهما يبحران نحو الأمام.

---

(11)لا يوجد ترجمة عربيّة دقيقة للكلمة الفرنسيّة Chenet، والتي هي عنصر إكسسوار في موقد الحطب بحيث تتكوّن من الحامل الذي يوضع الحطب عليه وتنتهي

برأس مزخرف، وبما أنّ وظيفتها هي دعم الحطب قررنا ترجمتها بـ «الحامل» (المترجم).

XVII

الانبعاث

جاء الأسبوع الثاني من شهر أبريل معتدلاً للغاية في كافّة أنحاء أهوار فونديه وحلّ الربيع فيها. إنّه الربيع الأوّل بالنسبة لأشجار الخوخ الشوكي والصفصاف. لم تزهر بعد لكنّها حملت البراعم، وللبراعم رائحة قبل الأزهار. طفا الربيع فوق الريف ورفعت كل الطحالب، في المروج المنخفضة التي سحبت منها المياه، أهراماتها ذات الزعانف بين أوراق العشب الجديدة. كما بنى الدحروج أعشاشه، وكانت الخيول العائدة إلى المراعي تجري في الشمس فوق الضفاف الراسخة. بدت البرك زرقاء كما بدت الغيوم بيضاء، لأنّ ساعة الفرح حلّت.

بعد ظهر أحد أيام هذا الأسبوع، عندما ولد العالم من جديد، انتظر توسان لومينو عند حاجز طريقه عودة الأخت ميشلون الكبرى التي أرسلها قبل ثمانية أيام إلى قرية شاتوليه. ولأن ميشلون كتبت، فقد نجحت في بعثتها، وأعادت من بوكاج العامل المتواضع الذي سيكون زوج روزيل، ومن المقرّر سيكون الداعم وقريباً سيّد لا فرومنتيير. ومنذ الصباح ذهبت فيرونيكا لمقابلة شقيقتها واصطحبت معها روزيل، واقتربت اللحظة التي سيظهر جميعهم فيها، داخل العربة التي تجرّها لاروس، عند منعطف الطريق بين حقلي قمح يلوّحان في مهبّ الريح.

كان المرابع ينتظر في أرضه متّكئاً على الحاجز الذي تركه

يمر، للأسف! حتى لا يعودوا أبدًا، كل أبناء المزرعة، وأراد أن يفتحه بنفسه للوافدين الجدد. بالتأكيد كان قلبه حزينًا، فقد عاملته الحياة بقسوة، والمستقبل لم يطمئنه كثيرًا. ألن يتم بيع الأرض قريبًا وتسليمها للمخاطرة؟ في هذه اللحظة بالذات، وعلى استعداد للترحيب بمن دعاهم لخلافته، هل يستطيع توسان لومينو تبديد الفكرة القائلة بأن التقليد الطويل يقترب من نهايته، وأن اسم عائلته واسم مزرعته، اللذان لم ينفصلا منذ قرون، لن يجري الخلط بينهما بعد ذلك؟

ومع ذلك فقد كان أكبر وأفضل عرقاً من ألا يأمل بعد الآن، فالدم الذي يجري في عروقه كالحبوب يحيط بقليلٍ من الشباب الأبدي، شباب يمكن الاعتقاد أنّه مات، فيما هو ما زال حيّاً.

نشأت ضوضاء مملة ومتسرعة، مثل تلك التي يصدرها أشخاص يصارعون البلاء، من بعيدٍ بالقرب من شالّان، وانتقلت في الهواء الدافئ. تعرف توسان لومينو على مظهر فرسه الحمراء، والتي كانت تهرول كما لو أنّها عائدة من الأسواق أو الاحتفالات أو الأعراس. رفع رأسه. مرة أخرى شعر أنّ الشجاعة للعيش ولدت فيه من جديد. ثم استدار نحو الطريق حيث تلوّنت الأشجار القديمة باللون الأخضر، ومخمنًا وراءها فرحته المتسارعة خلع قبعته وقال ماذا ذراعيه:

- تعالي حبيبتي روزيل، أنت وجان نيسمي!

النهاية